

قافلة الزيت

ذو القعدة ١٣٩٦ - اكتوبر/ نوفمبر ١٩٧٦



إحدى القلاع الضخمة في "وان"

راجع مقال "بحيرة وان" تصوير: روبرت عزي

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الحادي عشر   المجلد الرابع والعشرون

تصدر شهريا عن شركة ارامكو لموظفيها - ادارة العلاقات العامة
"توزع مجانا"
العنوان: صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران. المملكة العربية السعودية

محتويات العدد

التعليق على صورة الغلاف

احد السدود البارزة في المملكة العربية السعودية

راجع مقال « السدود » - تصوير : عبد اللطيف يوسف

المدير العام: فيصل محمد البسام   المدير المسؤول: عبد الله صالح جمعة

رئيس التحرير: عبد الله حسين الغامدي   المحرر المساعد: عوني أبو كشك

الأدب الحزين

الانسان بطبعه ميال الى الخوف من كل شيء لا يراه ، فهو يتوجس مما يأتيه عن طريق الغيب الذي لا يدركه وهو يحسب حساب المفاجآت التي لا يتوقع حدوثها والأحداث التي لا يعرف ميعاد وقوعها . فالاحساس بالخوف كما أراه يمكن أن يعتبر حاسة أخرى تضاف الى الحواس التي يتألف منها وجود الحس عند الانسان . ولعل أشجع الشجعان لا يخلو من الشعور بالخوف بل ان خوفه لا يقل عنه عند غيره من الناس . انه يستطيع الصبر والاحتمال أو هو يجيد التكلف واخفاء الحقيقة فيتظاهر بالاقدام ، ثم يقدم ويفوز فيكون شجاعاً في حين يكون غيره جباناً رعديداً ، ولكن هذه الشجاعة لا تبدو إلا من خلال الخوف الذي سيطر على الانسان الشجاع وتحكم به ثم استطاع الشجاع أن يتملص منه وينفذ الى غايته التي يظهر بها غير خائف ولا وجل .

والموت أعظم شيء يخاف منه الانسان لأن الموت نهاية لوجوده ، هذه النهاية التي تذهب به الى عالم آخر لم يره وانما فكر فيه وتخيله وقرأ عنه ، فاختلطت حقيقته بالخيال وامتزج شكله بالكثير من التصورات . وخوف الموت لا يحد لأن الانسان لا يستطيع تفاديه ولا مقاومته ولا التحايل عليه ، انه حكم مبرم غير قابل للنقض أو لأية طريقة أخرى من طرق الخلاص ، ولقد عبر عن هذا الشاعر شوقي في رثاء الشاعر اسماعيل صبري وكان قاضياً بارزاً فقال :

قاضي القضاة جرت عليه قضية — للموت ليس لها من استئناف

ولقد سئل الحسين بن الضحاك عند موته عما يشتهي ؟ فقال : أشتهي أن لا أموت ، وليس من السهل ، في حقيقة الأمر ، أن تنتهي حياة المرء ، وليس هيناً أن يغادر هذه الدنيا الجميلة التي ملئت مناظر أخاذة وغصت بأفانين من الجمال والطرافة . انها حكمة الخالق التي أهداها للناس كي يتمتعوا بها ، ولكنه تعالى ، لم يترك لهم الحبل على الغارب ، بل جعل الموت لهم حداً يتذكرونه خائفين ويحسبون حسابه في كل لحظة من لحظات الحياة ذاكرين متطلعين .

والفنان الأصيل أكثر الناس حساباً للنهاية الأخيرة ، وهو يكاد لا يترك التفكير في هذا الموت الذي قهر الباري به عباده ليحد من وجودهم وليأخذ بهم الى العالم الآخر ، عالم الخلود الذي لا ينتهي ، ذلك أن الفنان شديد الاحساس بما في هذا الكون البديع من فتنة وجمال ، فهو يتعشقه وينظر اليه والهاً معجباً ، ويتغنى بمناظره الخلابة حتى لقد أصبح شعر الطبيعة جزءاً كبيراً من الشعر العالمي فكانت « الرومانتيكية » في الأدب وقفاً على التغني بجمال الطبيعة وفتنة الحياة . فتركها صعب ، وفراقها مؤلم ، وهذا أبو تمام يرى في الدنيا منظراً خلاباً ومتعة للنظر فيقول :

دنيا معاش للورى حتى اذا — حل الربيع فانما هي منظر

وقد يزداد حس الفنان وتطلعه الى نهاية الحياة فيدمن التفكير ويقف فكره على هذا الخوف الذي لا يفارقه ولا يستطيع الخلاص منه ، فيصبح أكثر دهره صامتاً مفكراً في العواقب ، ويزداد في نفسه عمل الحس الباطن فيزداد ، تبعاً لذلك ، توارد الخواطر عنده ، ويكثر تأويله للمظاهر الطبيعية ، كما يسيطر عليه الوهم الذي يقلب عنده حقائق الأشياء ، فيرى الأمور على غير الصورة التي يراها الناس العاديون فكل شيء له معنى ظاهر وآخر باطن ، وكل منظر له شكل وله حقيقته ، ويأخذ في تفسير المصادفات والمفاجآت تفسيراً يبعد عن الحقيقة في أغلب الأحيان ، في حين أن هذه المصادفات تقع مع غيره من الناس وعلى مرأى منه ، فلا يهتم بها ولا يجعل لها من المعنى أكثر مما تتسع له وقد يرى الفنان ذلك ولكنه لا يقنع برأي الآخرين وانما يشتط في تفسيره وتأويله للمظاهر حتى يصبح ذلك ديدنا له .

والشعراء وأصحاب الفن آراء في هذه الحياة توحي بالرثاء لحالهم ، وكثيراً ما تكون هذه الآراء وسيلة لسخر الناس ، ولقد لقي هؤلاء الفنانون من سخر الناس ما عجزت عنه نفوسهم فباؤوا بألم كبير وتحملوا من ذلك الشيء الكثير . لقد كان ابن الرومي نموذجاً لهذا النوع من الفنانين الذين يقضون حياتهم مهتاجين مشدودي الأعصاب الى ما يبدو في صفحة الحياة من مفارقات يحسونها بأعصابهم فيثورون خوفاً ويتحركون هلعاً وجزعاً .

لقد رأى ابن خفاجة الجبل في الليل فأوحى له منظره أنه يحمل هما كبيراً وانه يفكر في نهايته التي لا بد آتية وكأنه انسان عادي يحمل من هموم الحياة ما لا طاقة له باحتماله .

مقيم على ظهر الفلاة كأنه — طوال الليالي مفكر في العواقب

لقد نقل الهم الذي يعتلج في صدره الى هذا الجبل الجماد فحمله منه ما ضاقت عنه نفسه وهكذا فان الفنان يخلع على الطبيعة ما عنده من هموم وأحزان حتى ترى الكون حزناً كله .

هذا الخوف الذي يعايش الفنان ويسايره حياته كلها هو ما نسميه بالتشاؤم . والتشاؤم أعم من الخوف واشمل ، وهو خوف يمتزج به الكره والامتعاض ، وهو لذلك علة كبيرة في النفس ومرض ، كثيراً ما يؤدي بصاحبه الى الهاوية .

وتشاؤم ابن الرومي يمكن أن يكون مثلا رائعاً لتشاؤم الشعراء وارتباكهم في حياتهم ، والا فما الذي يوحي لابن الرومي بالخوف من الأحول أو الأحدب أو القصير المفرط في القصر حتى ليهرب منهم هربه من شيء مخوف رهيب . مع أن هذه المناظر بالنسبة الى الانسان العادي ، مناظر عادية بل ربما أوحت الى اصحاب المرح والفكاهة بلون من الوان السخرية . . فابن الرومي يضخم المنظر ويؤوله ويفسره ويخشى نتيجته ويتخيل أنه يسبب له خطراً

التفاؤل والتشاؤم

بقلم : الأستاذ أحمد الجندي

كبيراً ، فهو يتحاشاه ويهرب من طريقه ويكون سعيداً حين يخلو يومه من رؤية مثل هؤلاء ممن يعدهم الفنان مناظر مؤلمة ، وهذا التفخيم هو الذي استخدمه ابن الرومي في تصوير الشخصيات الشاذة التي عني بتصويرها وكان ضيق الصدر بها ، برما بمنظرها الرهيب ، كان يخرج من داره في الصباح بعد أن يتربص قليلاً وراء الباب ، وبعد أن ينظر بعينيه من خصاصه ليرى طريقه خالية من كل ما يعكر مزاجه ويؤذي طبيعته ، فاذا خرج وفاجأه قصير أو ذو لحية أو أحدب عاد أدراجه مسرعاً الى داره ليلبث فيها حقبة ثم يعود الى التشوف من خصائص الباب وربما ظل كذلك بين خروج ورجوع سحابة يومه ، وقد يطول به الأمر حتى يبقى نهاره في البيت لا يخرج منه ليتدبر أمر عياله من مأكل ومشرب . روي أن امرأته رمت دار جاره بحصاة صغيرة فتحدثت الى الجارة تقول : لقد مرت علينا خمسة أيام وزوجي لا يخرج من البيت حتى كدنا نموت جوعاً ، وعلمت الجارة أن هنالك أحدب يجلس أمام دار الشاعر فاذا خرج ورآه عاد الى الدار وقد يكون هذا الأحدب ممازحاً يريد أن يسخر من الشاعر .

لقد صور الوهم وتداعي الأفكار عند الشاعر هذا الأحدب شيئاً خطيراً ، حتى رآه سبباً للخطر الذي يتوقعه ، لذلك أغرق في تصويره وبالغ في رسم ملامحه المشوهة ، رسماً قد يخالف الحقيقة ولكنه ينطبق على ما يتصوره فهو يقول في وصف الأحدب الرهيب :

قصرت أخادعه وطال قذاله
فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة
وأحس ثانية لها فتجمعا

ولا يمكن أن يتصور الانسان الأحدب على هذه الصورة الا اذا كانت صورته ذات أثر في نفس الرائي ، وقد يمر بهذا المنظر مئات الأشخاص فلا يحسون به ولا يشعرون لأن الحدبة في الرجل ظاهرة طبيعية قد تكون مألوفة وان كانت شائهة . وهي ليست نادرة الوقوع ، وكذلك قل في الأعرج والقصير والأحول . ان هؤلاء في الحياة كثيرون وان كانوا قلة نسبية لكن منظرهم ليس غريباً ولا عجيباً ، وقد نجد في الطبيعة أناساً ذوي عاهات أو نواقص تدعو الى الاستغراب فعلاً لأنها نادرة حقاً وعجيبة .

ان تصوير ابن الرومي للأحدب تصوير دقيق جداً قد أعطاه الحركة واللمحة الخاطفة ، وهو دليل على أن الشاعر الفنان قد تأثر بالمنظر تأثراً عميقاً ولم يكن بالنسبة اليه منظراً عابراً كما هو عند الآخرين ، ولعل الذي ساعده على اتقان الصورة شدة خوفه منه وحذره منه حذراً شديداً ، وكل ذلك يدل على رهافة الحس التي لا تتأتى إلا لشاعر موهوب . ان الشعراء وأصحاب الفن هم أكثر الناس تفكيراً في النهاية التي لا نهاية بعدها ، ولقد وقف الموت أمام ابن الرومي لا يريم ، وتبعه أنى سار ولازمه في حياته كلها ملازمة الظل ، فهو خائف أبداً خائر القوى دائما في حين كان الموت موضع اعتبار وتفكير أمام غيره من ذوي النفوس الشاعرة التي تحتمل الموت فلا يسيطر عليها ولا يغير من مجرى تفكيرها . لقد وصف الشعراء غير ابن الرومي وأمثاله ، الموت وصفاً رائعاً وذكروه في روحاتهم وغدواتهم ، ولكنهم كانوا يتركونه أحياناً ليذهبوا في فجاج الحياة ينعمون بالعيش ويتنقلون بين افنانه وافيائه ، ولقد تحدث المتنبي عن الموت حديث الرجل الذي يعرف موقعه وأثره ولكنه لم يتنكب عن السعي الى الولاية والسيطرة والنفوذ ، ولقد وجد في الموت أمراً لا بد منه وما دام كذلك فالخوف أمر لا مسوغ له :

والأسى قبل فرقة الروح عجز
والأسى لا يكون بعد الفراق

انه منطق سليم الى حد ما ولو أن خوف الموت حق أيضاً ، ومثل المتنبي يستطيع العيش متأملا ساعياً الى الغنى والجاه ، في حين أن ابن الرومي قد سيطر عليه الخوف حتى أقعده في داره لا يخرج ليدبر أمر طعام أولاده . ولقد تحدث ابن هاني عن الموت فصور واقعه تصويراً صادقاً :

الناس للموت كخيل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

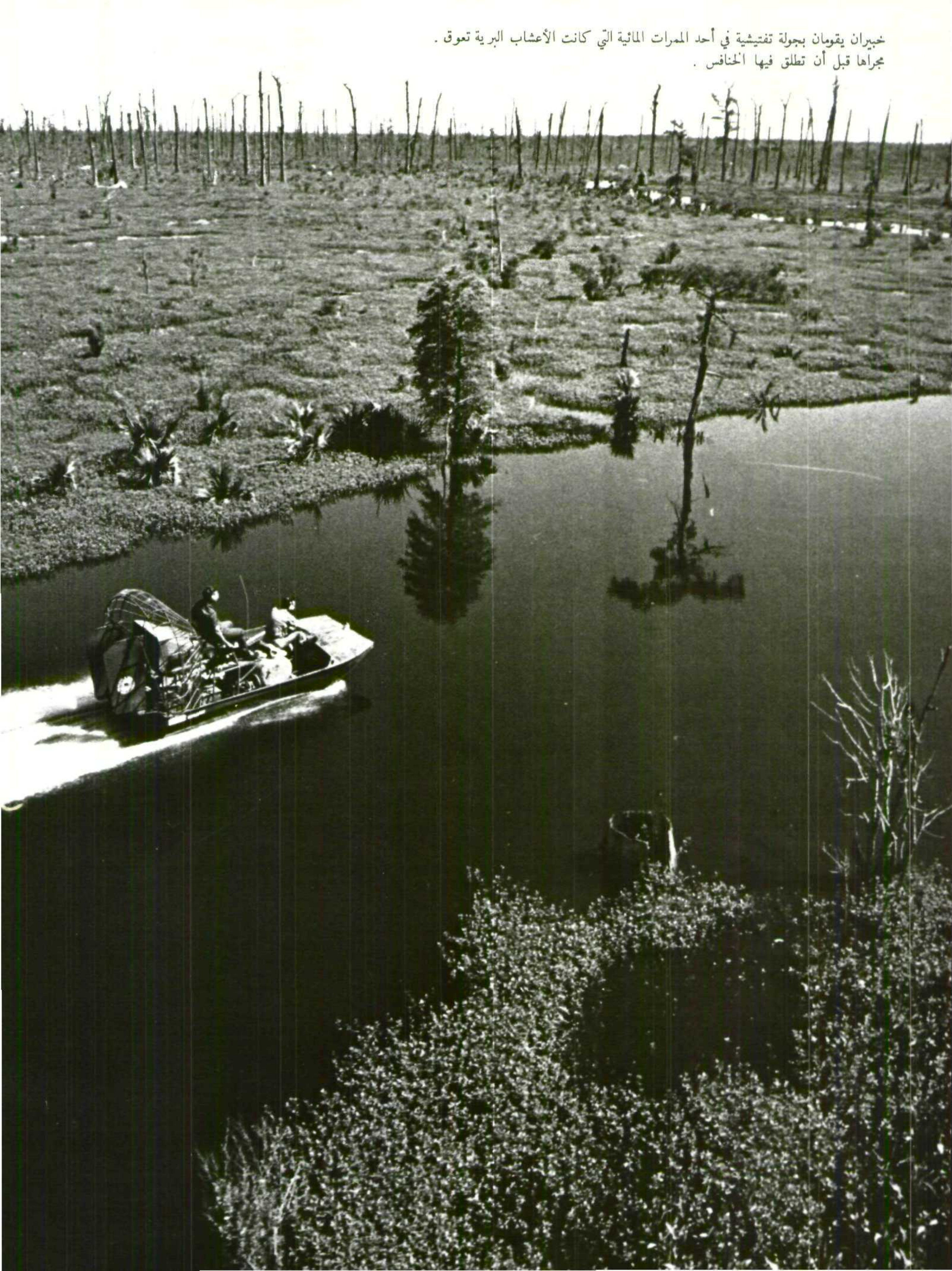
فالناس مسرعون الى النهاية معجلون الى بلوغ الغاية ولكن ذلك لا يمنع الشاعر من أن يمدح ويتغزل وهو هانيء وادع وقد نسي الموت نسياناً تاماً .

وهذا شوقي أيضاً يصف الموت حتى لكأنه يحسه في كل لحظة من لحظات حياته أو كأنه يتلمسه بكلتا يديه ، واسمع ما يقوله في رواية كليوباترا على لسان الكاهن الذي يخاطب ملكة مصر :

زعمت ابنتي الموت شخصاً يحس
وعظمت من أمره ما صغر
وما هو إلا انطفاء الحياة
وعصف الردى بسراج العمر
اذا جاء كان يغيض النفوس
وان جيء كان حبيب الصور
وليس صورة في العيون
على قبح صورته في الفكر

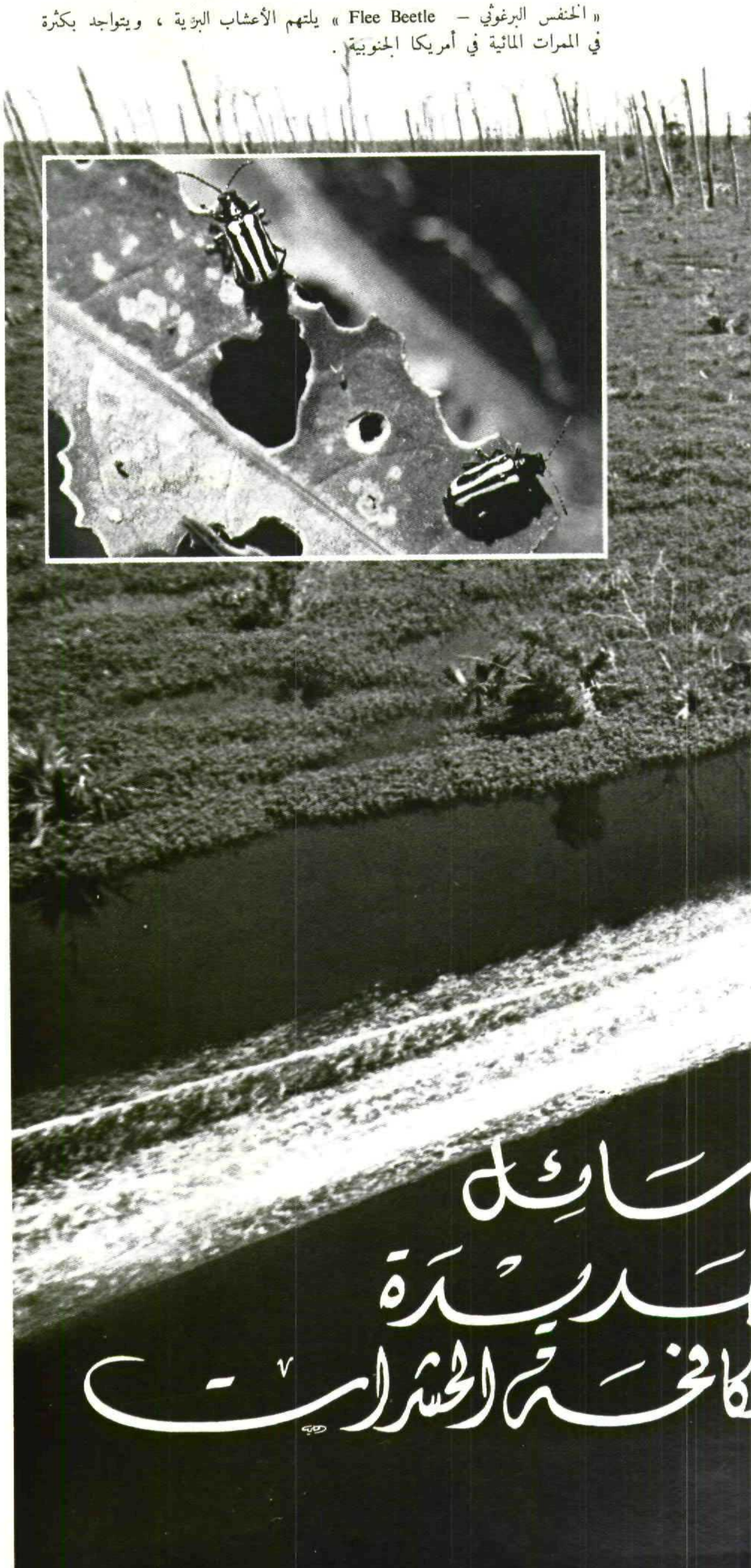
والى جوار هؤلاء الخائفين المتشائمين ، والى جانب المعتدلين الواصفين ، عاش شعراء ملكوا عنان الحياة ، وضبطوا هواجس العقل ، وتحكموا في اضطراب الأعصاب فهم ينظرون الى الموت نظرهم الى حادث طبيعي موقوت وان الحياة يجب أن تمر في مرحلة العمر مروراً هادئاً ما دام الموت قادماً لا بد منه ، وان على الانسان في فترة الحياة أن يعيش وادعاً هادئاً : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ●

أحمد الجندي — دمشق



خبيران يقومان بجولة تفتيشية في أحد الممرات المائية التي كانت الأعشاب البرية تعوق مجراها قبل أن تطلق فيها الخنافس .

« الخنفس البرغوثي – Flee Beetle » يلتهم الأعشاب البرية ، ويتواجد بكثرة في الممرات المائية في أمريكا الجنوبية .



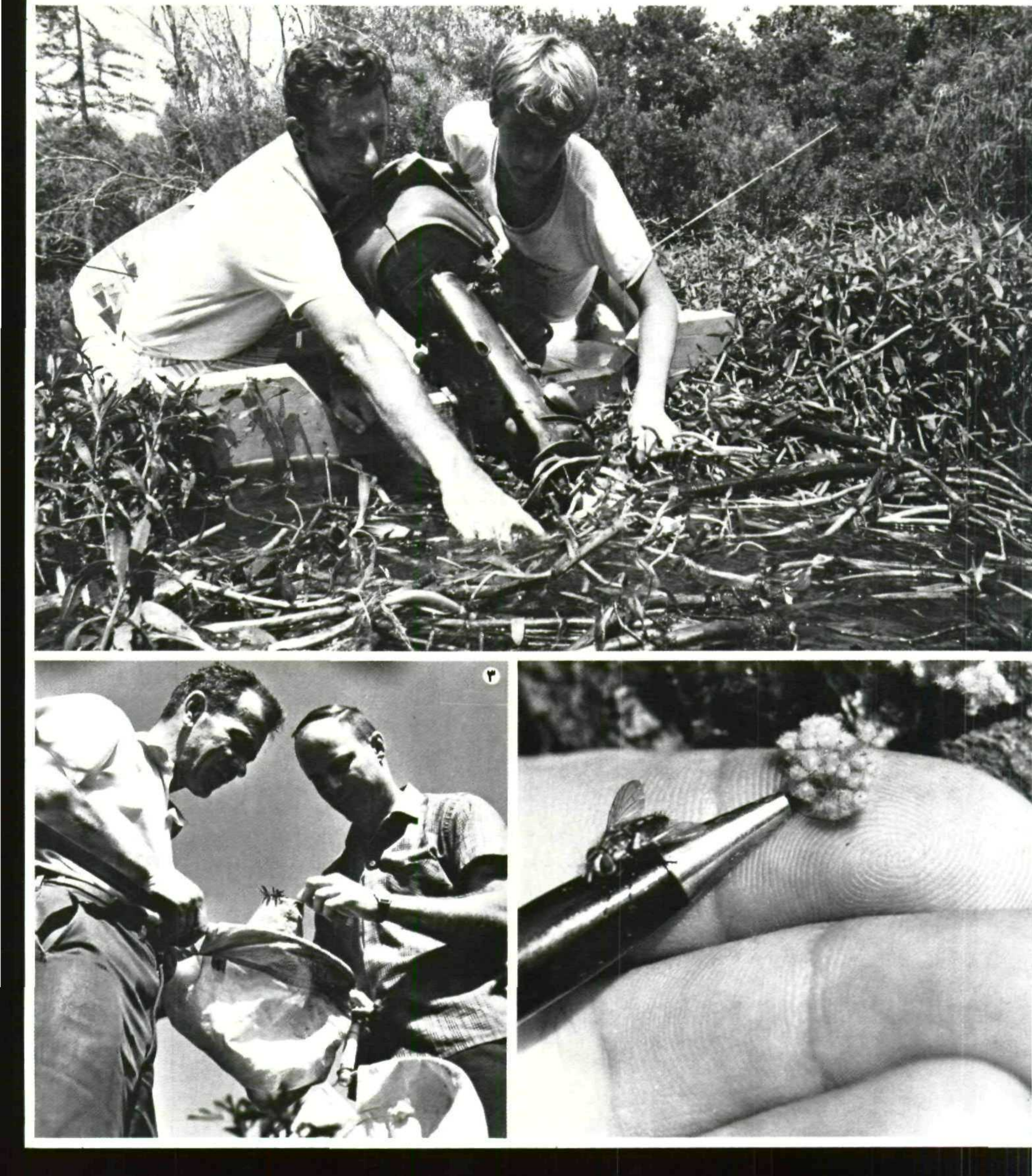
قام عدد من العلماء بأبحاث وتجارب عدة على مختلف أنواع الحشرات توصلوا على إثرها الى طريقة جديدة لمكافحة الآفات الحشرية باستخدام هرمونات الحشرات ذاتها وما يعرف علمياً بـ « العطور الجنسية – Sexual Perfumes » . فقد تمكن العلماء ، بعد ربع قرن قضوه في مكافحة الحشرات بالمواد الكيماوية ، من احراز انتصارات عديدة ، كان لها أحسن الأثر على صحة الانسان ورفاهيته . ومع ذلك فان الدكتور « روبرت فن دن بوش » عالم الحشرات في جامعة كليفورنيا يقول : انه يوجد الآن حشرات ضارة أكثر من ذي قبل ، وان هناك أعداداً كبيرة من الحشرات أصبح لديها مناعة ضد المبيدات الحشرية ، وان تكاليف مراقبة الحشرات قد ارتفعت كثيراً ، كما أن المحيط الذي تعيش فيه قد تلوث من جراء استعمال المبيدات الحشرية الضارة . لذلك فهناك اهتمام ملحوظ نحو تطوير طرق مراقبة المبيدات الحشرية التي تجاهلها الناس وخاصة مبيد الحشرات المعروف بـ (د.د.ت) . فقد شرع عالم الحشرات والكيميائي « روبرت منكلاف » بدراسة عناصر المبيدات الحشرية الاصطناعية التي تتكون منها مادة ال (د.د.ت) . وهناك دراسات أخرى تجرى حالياً أطلق عليها اسم «السيطرة البيولوجية – Biological Control » ، وهي تهدف الى ملاحقة الحشرات باستمرار واتلاف عملية تناسلها بالطرق الكيميائية . وتعتمد هذه الدراسات في الأصل على اتباع الطرق الطبيعية في مراقبة الحشرات بأنواعها الثلاثة : المفترس ، والممْرِض ، والطفيلي . وعلى سبيل المثال نذكر تلك الحشرة التي تسمى « بق الحمضيات الدقيقي » التي كانت تهدد بساتين الحمضيات في كليفورنيا . ولكي يتمكن المزارعون من القضاء على تلك الحشرة قاموا باستيراد نوع من الخنافس يدعى « فيداليا – Vedalia » من استراليا . وهذا النوع مشهور بعدائه لتلك الحشرة ، وبعد عام من استيرادها تمكنت من القضاء على تلك الآفة التي تصيب أشجار الحمضيات . ثم أخذت طرق مكافحة الحشرات بالمستحضرات البيولوجية تتوسع تدريجياً حتى أصبحت تضم مجموعة كاملة من المواد غير السامة المبيدة للحشرات ابتداء من تطوير هندسة زراعة المحاصيل المقاومة للوباء وانتهاء بالتغيرات البسيطة التي أدخلت على حراثة الأرض ، وطرق الري والتسميد .

ومن بين أهم المستحضرات البيولوجية المتقدمة

ما يسمى بالجيل الثالث من المبيدات الحشرية وتشبه في تركيبها الكيميائي مبيدات الجيل الأول المركبة من عناصر الزيت مثل الكيروسون ، ومبيدات الجيل الثاني المركبة من عدة عناصر مثل ال (د.د.ت) . إلا أن العناصر المتطورة الجديدة غير سامة ولكنها تؤثر على هرمونات الحشرات ذاتها .

وفي أحد الأبحاث التي كان يجريها علماء الزراعة طبقت النظرية القائلة إذا زال الجنس زال الوباء ، واذا زال الوباء زال تضرر المحصولات . وتبعاً لذلك قام العلماء بتطوير مواد كيميائية قادرة على منع التناسل الجنسي لدى الحشرات . ويهتم العلماء ، بوجه خاص بالعطور الجنسية الحشرية التي تعتبر عنصراً فعالاً في عملية تكاثرها ، لأنه بدون هذا العطر الذي تفرزه الأنثى لن يتمكن أي من الذكور من العثور عليها . ولو حدث مصادفة واصطدم بها أحد الذكور فانه لن يحدث شيء دون وجوده ، وتدعى هذه المادة التي تجتذب الذكور « فيرومون — Pheromone » وهي عبارة عن مادة هورمونية تعتبر حبل الاتصال بين أفراد الفصيلة الواحدة من الحشرات . وهناك أنواع مختلفة من الحشرات والحيوانات تلجأ الى هذه المادة الهرمونية لتحديد أمكنة غذائها ، أو أعشاشها أو المناطق الخاصة بها . كما أن هناك بعض الأدلة التي تثبت بأن هذه الفيرومونات موجودة لدى الانسان . أما الحشرات التي يتصل بعضها ببعض عن مسافات بعيدة فيكون « الفيرومون » لديها متطوراً جداً بحيث أنها اذا ما أطلقت الرائحة المناسبة في الاتجاه الصحيح في الهواء استطاعت أن تجتذب اليها الذكر الذي من نوعها من مسافات تتراوح ما بين متر وخمسمائة متر تقريباً . وقد وجد العلماء أن فعالية هذه المركبات تجعلها صالحة للاستعمال في عدد من المواد الفريدة في نوعها المبيدة للحشرات . وباستعمال الفيرومونات كطعم في مصائد الحشرات يمكن معرفة عدد الحشرات وتحركاتها ، ومن ثم تحديد الكميات اللازمة من المبيدات بدقة تامة . ففي احدى التجارب التي أجراها الدكتور « وندال رولوفس » ، في أحد بساتين التفاح بمدينة كورنيل ، أظهر كيف يمكن للمزارع أن يوفر ما بين ٢٥ و ٥٠ بالمائة من تكاليف رش الأشجار باستخدام مصائد الفيرومونات للسيطرة على الآفة التي تصيب أوراق أشجار التفاح ، ومما يذكر أن الدكتور « دافيد وود » في جامعة كليفورنيا

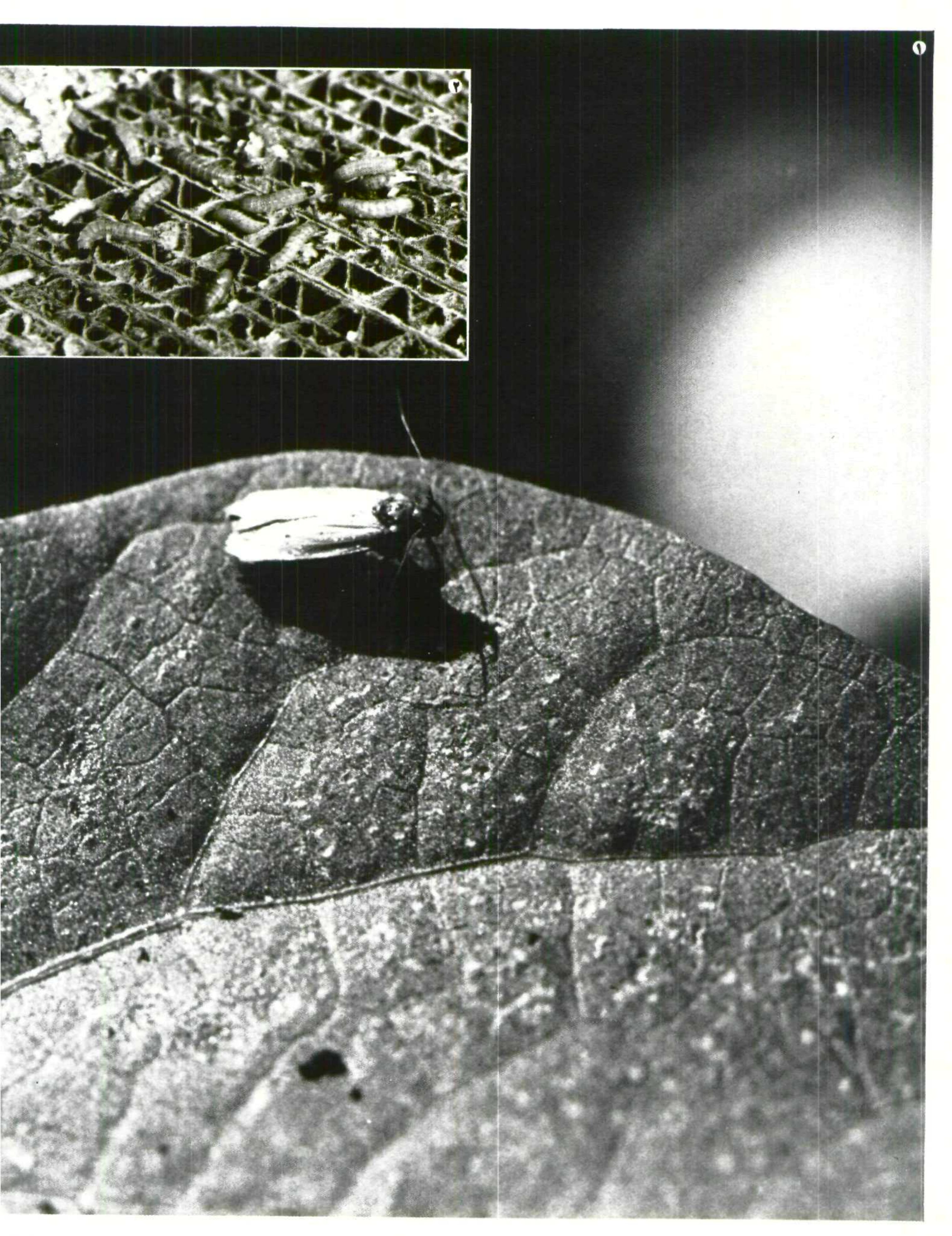
فراشة الغجر — Gypsy Moth من الآفات الحشرية التي تهدد سلامة المزارع . وقد تمكن العلماء من تطوير طعم اصطناعي فعال مماثل للمادة الجذابة التي تفرزها الأنثى .



١ — كانت الأعشاب البرية مصدر ازعاج لصيادي الأسماك قبل اطلاق الخنافس في الجداول القريبة من بحيرة بونت شارترين في ولاية لويزيانا . أما الآن فان المياه تجري صافية بعد أن التهمت الخنافس الأعشاب البرية وقضت عليها .

٢ — مجموعة من بيض الفراشة الغجرية بعد تكبيرها ، وقد ظهرت على رأس القلم فراشة استوردت الى أمريكا ، لتساعد في التقليل من الآفات الحشرية التي تعيش عالة على اليرقات .

٣ — خبيران من مركز الأبحاث الزراعية الأمريكي ، يقومان بجمع الحشرات ، من حقل للبرسيم ، لفحصها وتحديد مدى تأثير الدبابير التي أطلقت في المنطقة على حشرة البرسيم .


١
٢

– احدى فراشات دودة القطن التي جرى تعقيمها
طلاقها في أحد حقول القطن الموبوءة بالقرب من
يكرزفيل في كاليفورنيا وذلك للتحكم في عملية
تناسل لدى هذا النوع من الفراش .

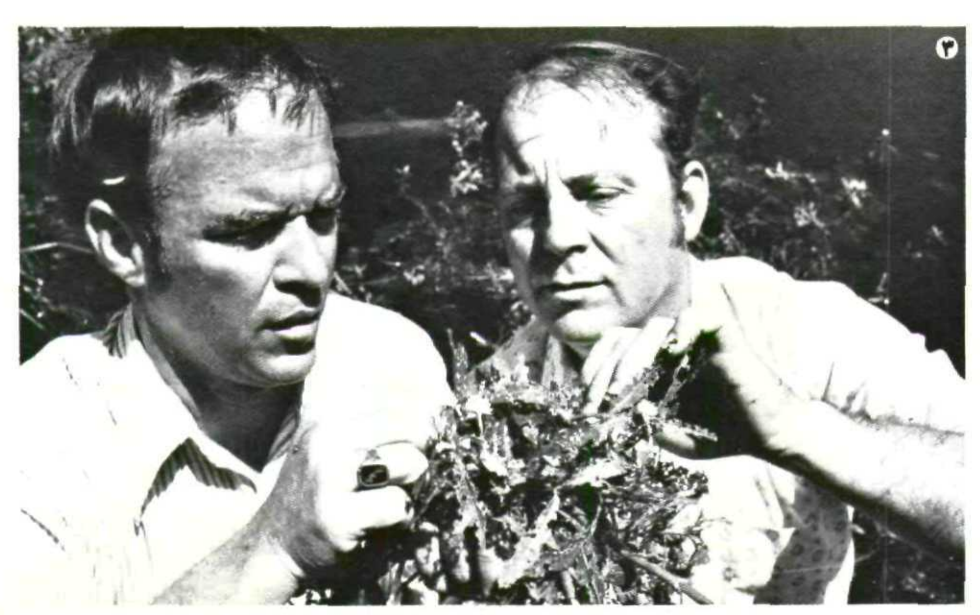
– مجموعة من اليرقات التي جرت تربيتها في مختبر
براونزفيل » قد بدأت تتحول الى ديدان . وكان
غرض من هذه التجربة هو محاولة التحكم في عملية
الد«دودة القطن الحمراء Pink Cotton Bollevorm»

– خبير في الأعشاب المائية ، واختصاصي في علم
لحشرات يتفحصان بيض « خنفس » ملتصق بأوراق
شاب برية .

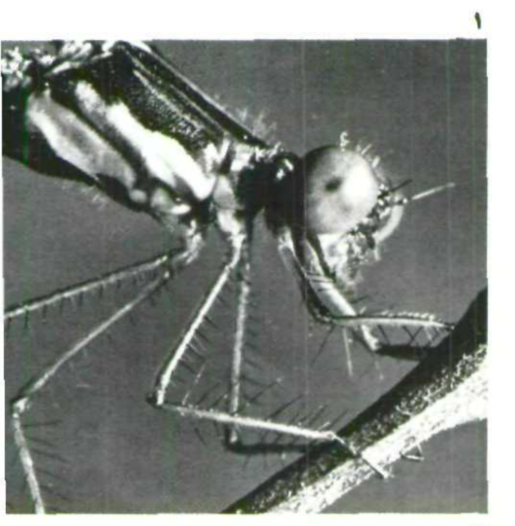
أجرى تجارب على فيرومونات خنفس الصنوبر استهدفت الاستغناء عن المبيدات الحشرية العادية عن طريق تجميع الآفات ثم القضاء عليها ، وذلك لأن خنفس الصنوبر ، رغم مقاومته للمبيدات الحشرية التقليدية فانه يستطيع أن يفتك بما مقداره تصف بليون الى ثلاثة بلايين ونصف البليون قدم من ألواح الخشب التجاري في كل عام ، والذي يقدر ثمنه بحوالي ٦٠٠ مليون دولار . وبعد أن بذل الدكتور « وود » الكثير من الجهد والعمل في الغابة ، اكتشف أن مهاجمة الخنافس للأشجار تزداد كثيراً بعد اتصال ذكور الخنافس باناثها ، وانه حالما يأتي الذكر الى احدى الاشجار وينشىء بيتاً تحت قشرتها ، تنضم اليه ثلاث اناث . وقد اكتشف الدكتور « وود » أيضاً أن الرائحة التي يطلقها الذكر والتي تجتذب اليه الاناث تصدر عن برازه الممزوج بنشارة الخشب . وقد قام الدكتور الكيميائي « روبرت سيلفرستين » بعزل المادة الكيميائية الفعالة في البراز وتركيبها بالطرق الاصطناعية .

وفي احدى التجارب التي أجراها الدكتور « وود » وفريقه ، في « باس ليك » شمالي كليفورنيا ، قاموا بتثبيت ألواح خشبية ووضعوا عليها مزيجاً من الفيرومون المكسو بطبقة خفيفة من صمغ خاص وتركوها في غابة تبلغ مساحتها حوالي ٦٥ كيلومتراً مربعاً ، وقد تمكنوا ، خلال شهرين من اصطياد نصف مليون خنفس ، ونتيجة لذلك انخفض عدد الاشجار التي كانت تتلفها الخنافس من ٢٠٠ شجرة الى ٧٣ شجرة في العام . وفي الوقت الذي كان الدكتور « وود » يجري فيه بعض التحسينات على مصائده ، كان زميله الدكتور « هاري شوري » في جامعة كليفورنيا قد بدأ حملة من نوع آخر ضد آفات القطن ، لأن ايجاد بديل للمبيدات الحشرية التي تستعمل في رش أشجار القطن بوجه خاص يعتبر أمراً مهماً جداً ، ورغم أن ١,٥ بالمائة من الأراضي فقط تزرع بالقطن في الولايات المتحدة الأمريكية ، فزراعة القطن وحدها تستهلك حوالي ٤٥ بالمائة من المبيدات الحشرية الكيميائية التي تكلف المزارعين ملايين الدولارات .

لقد أظهرت الأبحاث التي أجراها الدكتور « شوري » على دودة الملفوف انه حينما تحشر ذكور واناث عذارى معاً في أوعية يكون الهواء فيها مشبعاً بفرمونات الذكور ، فان أحداً من الذكور لا يتزاوج مع أية أنثى رغم قربهما من بعض ورغم اظهار الاناث استعداداً تاماً للتزاوج عن طريق اخراج الفيرومون الجنسي وخفقان الأجنحة . ومن ذلك استنتج الدكتور «شوري» بأن الافراط في استخدام الفيرمون يبطل مفعوله ، لأن حاسة الشم لدى الذكر تكون قد تشبعت كثيراً بالرائحة المنتشرة في الهواء بحيث أنه لم يعد يقوى على معاشرة أية واحدة من الاناث لأن كمية الفيرومون التي تطلقها الأنثى تكون عادة ضئيلة جداً بالنسبة للكمية المنتشرة في الهواء . لذلك اعتقد الدكتور « شوري » ان اطلاق كمية كبيرة من الفرومونات في حقول القطن تؤدي الى النتيجة ذاتها . وبعد أن جرب ذلك في مساحة صغيرة وجد أن اناث ديدان الملفوف العذراء التي

ربطها في المساء لتكون فريسة سهلة للذكور ، وجدها في الصباح ما تزال عذراء : بعد ذلك قام الدكتور شوري وعدد من طلبته المتخرجين بتجارب على نطاق واسع شملت حقل قطن تبلغ مساحته حوالي ١٢ فداناً فأعدوا ٣٠٠٠٠ انشوطة من الخيطان ، ووضعوا انشوطة بين كل ١,٦ متر مربع من مساحة الحقل ، وكل انشوطة مشبعة بعشرة ميليغرامات من الفيرومونات . واستمروا في تكرار هذا العمل مدة شهرين ونصف الشهر وتمكنوا من اصطياد أكثر من ١١٠٠٠ ذكر في كل مصيدة وضعت فيها انثى حية ، وقد أثبتت التجربة أن رائحة الاناث حين تنتشر بكثرة لا تجتذب اليها الذكور . ولم تكن تلك الطريقة الآنفة الذكر ، هي الوحيدة التي اكتشفها العلماء لاصطياد الحشرات ، بل هناك طريقة أخرى أكثر انتشاراً تستعمل فيها مجموعة من المواد تسمى الهرمونات اليافعة ، وهي عبارة عن افرازات داخلية موجودة لدى الحشرات ، وهذه الافرازات هي التي تتولى تطوير الحشرات ، وتحولها من يرقة الى خادرة ومن خادرة الى حشرة كاملة النمو . وقد اكتشف العالم البريطاني « ويجلزورث » عام ١٩٣٦ أن الهورمون اليافع ينبجس من غدتين صغيرتين موجودتين في رأس الحشرة ، وانه يعمل على ابطال مفعول هورمون آخر يدعى « أكديزون — Ecdysone » . وهذا الهرمون هو الذي يحث أعضاء الحشرة على التساقط ويحولها الى حشرة كاملة النمو . ولو لم يكن الهرمون اليافع موجوداً أثناء المرحلة التي تكون فيها الحشرة ما تزال يرقة ، فان اليرقة ستخضع لمفعول « الاكديزون » فتتحول قبل اكتمال نموها الى خادرة ، ولكن وجود الهرمون اليافع في مرحلة تكوين اليرقة أو الخادرة ، هو الذي يبطل مفعول « الاكديزون » ويمدد مرحلة النضوج . والجدير بالذكر أن الدكتور « كرول ويليامز » كان قد أثبت عملية الاكديزون حين قام بتجربته البارعة التي يمكن لأي واحد أن يقوم بمثلها على بضع يرقات مثل يرقات دود القز لأنها كبيرة وقوية ويمكن معالجتها بسهولة ، وذلك باستعمال خيطين قويين يشدهما على جسم دودة القز لعزل الأعضاء التي تنتج الهرمون فيوقف بذلك حركة الهرمونات عن باقي جسم دودة القز . كما أنه من الممكن اظهار مدى تأثير الهرمون اليافع على تطور الاكديزون بسهولة إلا أن ذلك لا يمكن توضيحه إلا بعملية جراحية . فلو أن الغدد الصغيرة الموجودة خلف الدماغ أزيلت من احدى اليرقات بطريقة جراحية ، فان الدودة ستكبر وتتحول الى خادرة غير كاملة النمو ، ثم تتحول الى فراشة صغيرة جداً محكوم عليها بالموت خلال وقت قصير . وكان الدكتور « ويليامز » أول من أظهر فائدة هذه الأبحاث التي أجريت في حقل المبيدات الحشرية عام ١٩٥٦ ، بعد أن نجح في استخراج مادة الهرمون اليافع من أحد الذكور ، تلك المادة التي تتجمع لدى بعض الأنواع القليلة جداً بشكل يسهل اكتشافه . وحين وضع الدكتور ويليامز الهرمون الذي استخرجه على الخادرات اكتشف أن الهرمون يتسرب خلال الجلد السليم ، وان جميع الخادرات ماتت في النهاية دون أن تكمل مرحلة التحول ، ومن ثم أظهرت الأبحاث التالية التي أجراها الدكتور ويليامز ، والدكتور « ريديفورد » في مختبر هارفرد ان وضع الهرمون اليافع على الأنثى النامية أو على البيض الجديد يوقف تطور الجنين داخل البيض وقفاً تاماً . وبالاضافة الى ذلك فقد تكهن الدكتور ويليامز عام ١٩٥٧ ، بأنه سيصبح ممكناً تحويل الهرمون اليافع الى مبيد فعال للحشرات وانتاجه بالطرق الاصطناعية . كما أن النجاح الذي حققه في تجاربه قد شجع بعض المؤسسات العلمية على الاستمرار في تزويده بالمساعدات التي يحتاج اليها . وبعد مضي أحد عشر عاماً ، توصل « هربرت رولر » ورفاقه في جامعة « وسكونسن » الأمريكية الى اكتشاف طريقة تركيب الهرمون . ولكن نظراً لعدم وجود هرمون اصطناعي يجرون عليه تجاربهم فقد احتاجوا الى عشرات الألوف من الخنافس . ويقدر العلماء بأن غراماً واحداً من الهرمون النقي يكفي لقتل بليون حشرة . أما الآن فقد توصل الباحثون الى تركيب هرمون اصطناعي مشابه تماماً للهرمون الأصلي إلا أنه أقل جودة منه ومع ذلك فان فعاليته كافية لقتل أنواع مختلفة من الحشرات وخاصة الضارية منها . ويجري العمل حالياً على انتاج نوع جديد من المبيدات الحشرية يدعى « الطوسيد — Altosid » بكميات كبيرة لبيعه في الأسواق التجارية . ومما يذكر أن هذا النوع من المبيدات الحشرية يوقف تماماً عملية التحول لدى البعوض وبعض الحشرات الأخرى المشابهة للبعوض ، كما أنه غير ضار بالنسبة لعدد كبير من الحشرات الأخرى . وقد استعملت الشركة المنتجة لهذا المبيد اصطلاحاً خاصاً هو « منظم نمو الحشرة » بدلا من « الهرمون اليافع » . كما قامت باجراء الفحوص على « الطوسيد » مثله في ذلك مثل أي مبيد حشري آخر قبل

١


٢


١ — نوع من الذباب يتميز ببروز عينيه ويستعمل أقدامه الستة المكسوة بالشعيرات كسلة لاصطياد الحشرات .

٢ — فنية في مختبر تقوم بجمع يرقات لبعض أنواع الفراشات التي ستجري تربيتها في مركز « جينزفيل » بفلوريدا ، تمهيداً لاطلاقها في المنطقة الجنوبية الشرقية لمكافحة حشرة الأعشاب البرية .

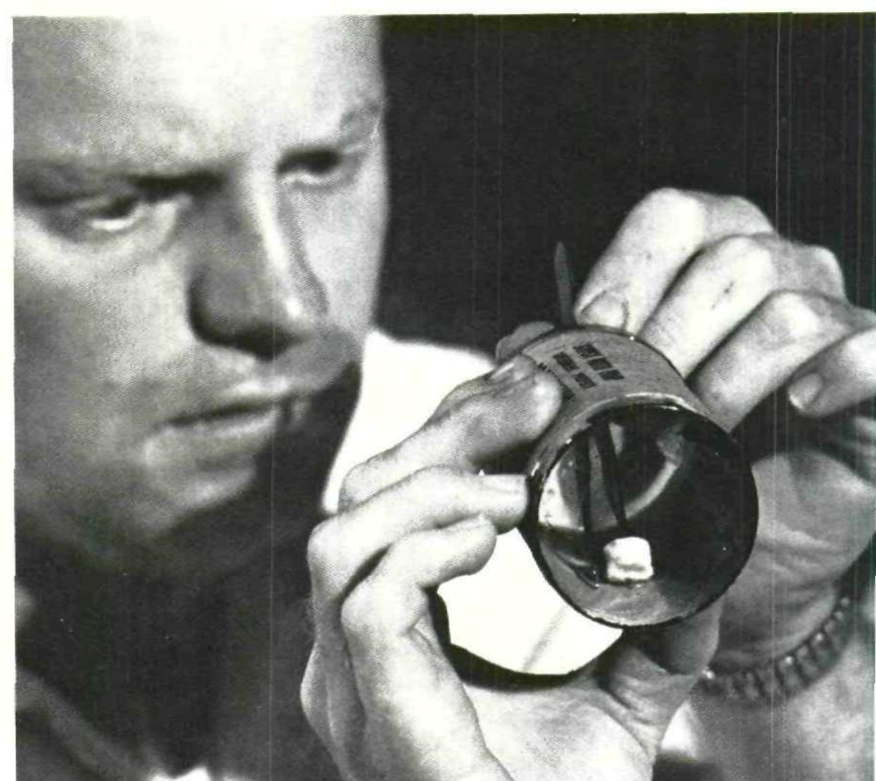
٣ – خبيران في مركز خدمات الأبحاث الزراعية الأمريكي يستعملان شباكاً خاصة بجمع الحشرات التي سيجري فحصها في المختبر لتحديد مدى فعالية الدبابير التي أطلقت في تلك المنطقة في القضاء على حشرة البرسيم .

٤ – عالم يضع قطعة من القطن مشبعة بالفيرومون الجنسي الاصطناعي في مصيدة الفراشات الغجرية ، بهدف احداث ارتباك لدى الذكور لعدم تمكينها من التعرف بالإناث والتزاوج معها .

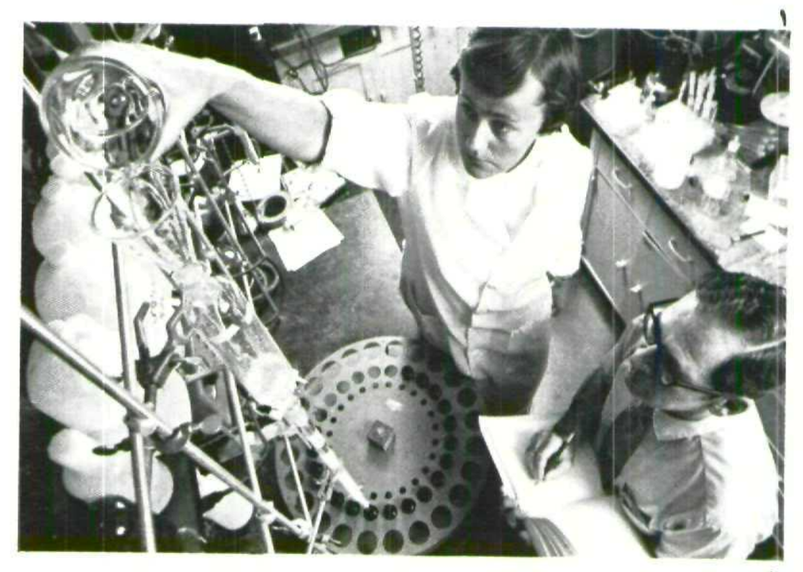
٥ – خبير زراعي يفتح الصمام الذي ينطلق منه الطعم الاصطناعي الى وعاء يضم مجموعة من فراشات الغجر ، خلال تجربة يجريها للتأكد مما اذا كانت الفراشات تستطيع التمييز بين الطعم الاصطناعي والطعم الطبيعي .

٥





١



٢



٣



١ – الدكتور « مورتون بيروزا » ، والكيميائية « بربارا بيرل » يجريان اختبارا لفصل الألوان ، على طعم فعال لفراشة الغجر في أحد المختبرات بغية تطوير طعم اصطناعي أكثر فعالية لصيد الفراشات الغجرية .

٢ – عالم كيميائي يستحضر مركباً كيميائياً لفحصه ومعرفة مدى فعاليته في تعقيم ذكور الفراشات الغجرية .

٣ – عالم حشرات يرفع فراشة من نوع – Army Worm التي اجتذبتها رائحة الفيرومون الجنسي الصادرة عن مصيدة اسطوانية طليت من الداخل بمادة لزجة .

تصوير : « اوثنتكيتد نيوز انترناشونال »

طرحه في الأسواق . وتجري حالياً تجربته في الحقول الزراعية ضد البعوض في كل من كليفورنيا وفلوريدا ، وغيرهما من الولايات الأمريكية . هذا وقد اقترحت شركة « زوقون » المطورة لهذا المبيد ، أضافته الى الوجبات الملحة التي تقدم للأبقار ، فيقوم الهرمون غير المتأيض بايقاف نمو الذباب العادي وذباب الخيل الذي يتوالد في فضلات الحيونات .

وهناك مشكلة أخرى مهمة تكمن في طبيعة الهرمون اليافع وعلاقتـه بالحشرات . وذلك أن الحشرة تقع تحت تأثيره وهي لا تزال في طور اليرقة ، فتكتسب مناعة ضد أي كمية أخرى تتعرض لها بعد ذلك . إلا أن الدكتور « ويليامز » لا يعتبر هذا الأمر نكسة هامة بالنسبة للتغلب على بعض الحشرات مثل البعوض الذي لا يشكل أي خطر عندما يكون في طور اليرقة ، ولكن الأمر مهم جداً بالنسبة للآفات الزراعية التي تتسبب في أكبر الأضرار للمزروعات عندما تكون في طور اليرقة . لذلك فقد استمر الدكتور « ويليامز » ورفاقه في البحث عن نوع جديد من المبيدات الحشرية يستطيع أن يوقف نمو اليرقات . وقد ركزوا بحثهم بوجه خاص على مبيد مضاد للهرمون اليافع ، قادر على تشويه اليرقة وهي في طور التكوين قبل أن تتحول الى خادرة ، وعن مبيد مضاد للاكديزون ، يستطيع أن يوقف نمو اليرقـة .

وبينما تشير الدلائل الى أن هناك عناصر قادرة على وقف انتاج الهرمون اليافع والاكديزون ، إلا أنه لم يتمكن أي عالم حتى الآن من اكتشاف تلك العناصر . ولكن هناك دراسات لم تنشر بعد أجراها الدكتور « ويليامز » ورفاقه على الدودة القرنية التي تصيب نبات التبغ ، تؤكد انتاج مادة قادرة على ايقاف تكوين الغدد الجسمانية ، فضلا عن ذلك فان ظهور هذه المادة في اليرقات الحية يتفق تماماً مع توقف تلك الغدد ذاتها عن العمل بصورة طبيعية . وحينما يتم التعرف إلى مصدر هذه المادة المضادة للهرمون اليافع ، وتركيبها الكيميائي ، ستجري تجربتها أولا على الدودة القرنية وهي أول أطوار اليرقة ، لمعرفة ما اذا كانت قادرة على احداث ولادة حشرات ممسوخة قبل موعدها ، وبعد ذلك تجري تجربتها على عدد من الحشرات الأخرى لمعرفة مدى تأثيرها عليها بوجه عام .

ومع ان نتائج التجارب الأولية التي أجريت على الفرومونات والهرمونات كانت مشجعة ، إلا أن أحداً من العلماء الذين أجروا تلك التجارب والأبحاث لم يؤكد نجاحها بعد في المستقبل القريب وذلك لأنه ، كلما قام هؤلاء العلماء بحل المزيد من المشاكل العلمية التي تواجههم ، بقيت أمامهم مشاكل عملية تحتاج الى تذليل عن طريق استنباط أجهزة عملية ومناسبة لمراقبة الحشرات الزراعية على نطاق واسع . ولئن كان نجاح نظريتهم هو الذي شجعهم على المضي في تجاربهم ، فانه ما تزال لديهم آراء أخرى قد حان الوقت لكشف النقاب عنها ، فقد ذكر الدكتور « جون مك كلفي » أحد البارزين في الأبحاث الزراعية أن وقاية المحاصيل الزراعية من الآفات ومراقبة الأمراض التي تنتج عن توالد الحشرات ، تشكل تحدياً مطرداً للعلماء ، كما أن هناك أدلة عديدة تؤكد بأن المواد الكيميائية المستعملة حالياً لن تستطيع أن تؤدي عملها لوحدها وانها قد لا تستأهل التكاليف التي تصرف من أجلها ●

اعداد : زكريا البنا – هيئة التحرير

ربابة

للرّاحل
أنور العطار

أيا ربّة الألحان غنّي ورنّمي   فمنك على الأيّام يحلو الترنّم
أغيثي لنا الدرب الطويل وجددي   معالمه يضحك على الدهر مأتم
ويفترّ مغموم وينعم معذب   وأسعد من فوق الثّرى المتنعّم
كأنك دمع في ثناياه راحة   كأنك شهد لم يخالطه علقم
فيا ربّة الألحان داوي جراحنا   ولا تبخلي فالبخل طبع مذمم
وجودي علينا بالأناشيد سمحة   فيأنس مهجور ويحيا متيم
وتسعد أرواح ترى فيك برءها   وتغنم منك الصّفو ، والصّفو يغنم
اذا هاجها في لجة الحزن هائج   فأنت لها الثّغر الذي يتبسّم
وان غالها من وثبة الدهر غائل   رأت فيك ما يحمي ويرعى ويعصم

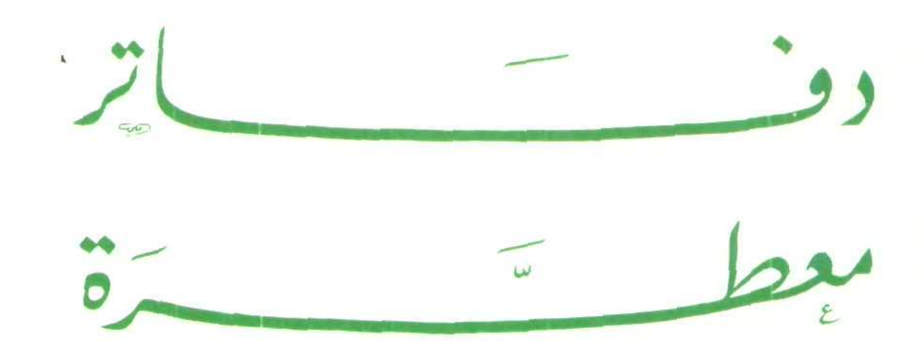
تجسّدت الألحان حقّاً وأقبلت   تبثّ الهوى حيناً وحيناً تكلم
فهاتيك ليلى القلب لاحت خيامها   وهبّت مغانيها اللّطاف تجسم
يَرنّ بمسمعي ضحكها وحديثها   ويسعدني منها البنان المعنّم
فعين رنت من رقبة الناس خيفة   وعين من الاشفاق راحت تسلم
تطوف علينا بالبشاشة والرضا   وتطوي الأسى والحزن جيش عرمرم
فلا تتنكر للخيالات والرؤى   فأيسر ما يشفي النفوس التوهّم
حقائق ذقناها فذقنا مرارة   وأخيينا من ظنّها لا تصرّم
تقضت وما فيها ابتهاج ومغنم   ولكنّها همّ ثقيل ومغرم

تعودين بالذكرى الى غابر الهوى   وتقتحمين الغيب ، والغيب مظلم
وتفترشين القفر شوكاً وجندلا   فيرجع مهدا بالطفولة يحلم

الألحان

وتمشين بالأرض العراء فترتوي ... وتمرع جنّات وتندي وتنعم
اذا عصفت بالنفس عاصفة الأسى ... فأنت لها الرّكن الذي يتسلّم
وان شفّها السهد المبرّح والضّنى ... فهمسك ترياق وجرسك بلسم
يعاودها من حيث لا تعلم الصّدى ... ويسري اليها الحبّ من حيث تعلم
وما غاب أحبابي الذين افتقدتهم ... ولكنهم في دارة القلب خيّموا
أحن الى لقياهم كلّ شارق ... وأشتاقهم والدمع في مقلتي دم
وأستعظم البين المشت كأنني ... « أرى عظماً بالبين والصّد أعظم »
تسمعت لحن الشوق منهم وانه ... لأطرب ألحان الحياة وأرحم
سيبقى على الأيام زاد مسافر ... له من نجاواهم عزاء ومغنم
وأحلف ما أقصى الحمام أحبّتي ... ولا ابتعدوا عني ولا اعتضت عنهم
سجية نفس ترتضي الود خالصاً ... وترعى الهوى ، والحب قبر مهدم

مهذبة الانسان مما يشوبه ... ورابضة الطبع الذي لا يقوم
وملهمة القلب الشجي لحونه ... وكاشفة السّر الذي ليس يعلم
سموت على دنيا الفنون رجاحة ... وما زالت الألحان تسمو وتعظم
ويا موسم الحب الذي غاب نجمه ... اذا ما سكنت القلب فالقلب موسم
ربيع من الذكرى ينمنمه الهوى ... وأي ربيع عبقري ينمنم
فمي منك حوام على نغماته ... وجف فمي ان كان ليس يحوم
ويا ألمي ما أنت عني بمنقض ... اذا لم تكن عمن تشكّى تترجم
ويا أملي ما أنت يوماً بمسعد ... اذا أنت لم يسعد بك المتألم
فما العمر الا نغمة طاب جرسها ... على شدوها تصفو الحياة وتنعم
على فمها أحلى الأعاليل والمنى ... ومن مهدها عطر المحبة ينسم



دفاتر معطرة

بقلم الأستاذ فاضل السباعي

ودّعتِنا ، يا « وداد » ، وقد تكشّف لك اخفاقك في حبّك الذي رعيت زمناً . أجل ، وحين غادرتني كنت – أنا أيضاً – في مثل حالك تعاسة واغتماماً . ذلك ما أغدقته علينا حظوظنا ، وان تنوّعت بواعث الاخفاق : فانما منيتِ بما منيتِ بعد أن ازورّ « ابن عمك » الذي عاهدتك وعاهدته ، وقد فلّت أشواقه من بعد توادّ وتواصل ، فأما أنا ، فلم تفلّ لفارسي أشواق ، ولا كبا لحبّه جواد ، ولكن أهلي – كما تعلمين – هم الذين خذلوه ، يوم أصرّوا على أن أبقى بينهم عزباء ، أقدّم لهم ، في مطلع كل شهر راتبي كاملا لينفقوه على اخوتي ، وقد فقدنا الأب دون أن يخلّف لنا ما يعين على احتمال تكاليف الحياة . .

اني لأحار من أين أبدأ رسالتي ، ولديّ أخبار مما تتوقّعين ، وأخبار أخرى عما يسمّى « بحث تكاليف المعيشة » ، ذلك البحث الذي قدّر لي أن أعمل فيه اضافة لوظيفتي . . . ان في جعبتي من الأخبار ، يا أختاه ، ما أتمنى لو أدرز به عشر صفحات ، عشرين ، بل قولي ثلاثين ، أسهب غالبا ، وأوجز حين يتراءى لي الايجاز ، ثم أعود فأستطرد ، دون أن تفوتني الاشارة ، بين الحين والآخر ، الى الدفاتر المعطّرة ، ممهّدة للمفاجآت ، على نحو ما تعرفين في صديقتك « المتأدّبة » ، الثرثارة : « أسماء » !

ما كنت لأستهلّ رسالتي بهذا الذي بدأت ، لولا استحضاري الدائم لفصول « مأساتك » و « مأساتي » ! أصف كلا بالمأساة ، ثم أحسّ راحة نفسية ! فاذا شئت تحذلقاً ، زعمت أننا – أنت وأنا – « ضحيتان » من ضحايا المجتمع ! (الآن تنزل راحة عظمى على قلبي) . فأنت ، يا وداد ، ضحية الرجل في عظيم أنانيته ، وأنا ضحية ظروف من نوع ما : فقدت أسرتي عمادها ، وقد ترك خمسة يصغرونني ، وأنا ما أزال في آخر سنوات دراستي في « دار المعلمات » ، فلما آن لي أن أتخرج معلمة ، ضنّ أهلي – ولهم العذر – بأن يزوجوني من ابن جيراننا « مأمون » ، المعلم الشاب ، الذي طالما حبس وراء الضلوع اعجاباً صامتاً ، تكشّف ، في أعقاب تخرّجي ، عن حب حقيقي ، حين تقدمت أمه تطلب يدي . وكان لا بد أن تثور ، هنا ، مشكلة الراتب : ما الحال اذا استأثرت الأسرة الجديدة الناشئة ببعضه ،



أو به كله ؟! وما نفعت التعهدات والمواثيق : « انه طامع ببنتنا ذات الراتب ! لتبق بيننا ، آمنين أنها ترعى اخوتها » . وفي ذلك سعت أمي الى أختها « الحاجة عائشة » (خالتي العجوز المترمّلة ، التي لم ترزق بولد ، وان ورثت عن زوجها المال الوفير) ، فأطلعتها على جوانب من مشكلتي ، لعلها تتوجع على بنت أختها ، فترقّ ، وتعين . . إلا أن الخالة أعلنت ، بمنطق الذي يحسب أنه عائش أبد الدهر ، وهي في سريرها الذي لا تفارقه : « اذا متّ ، فكلوا من تركتي ، وانعموا ، وترحموا عليّ ، أو لا تترحموا ! وأما في حياتي ، فلا تطالبوني بشيء » ! .

ويحي ! أي استطراد حملني على جناحيه !

هانتذي تصرخين ، حيث أنت ، والرسالة في يدك ! « وبعد ، يا أسماء ؟ أي لغو ! أفما أقلعت عن ذميم عادتك ، في المطّ والتطويل ؟ ما أجدرك بأن تغدي قاصّة » ! . .

ولكن مهلاً ، يا صديقتي ، فلعله أن يكون استطراداً قصدت اليه قصداً !

فأما ما تعرفين من الأخبار ، فهو أني مضيت واياك ، في الصيف الفائت ، الى حيث طلبوا فتيات (معلمات مدارس بصورة خاصة) ليعهدوا اليهنّ بالمشاركة في ذلك البحث الاحصائي الاجتماعي الكبير . وساعة بلغنا مقرّ « المشرف » على البحث ، رحّب بنا أجمل ترحيب ، ولكنه اعتذر بأن مراجعتنا له قد جاءت متأخرة . . . « أما وقد تجشّمتما عناء المجيء ، فلا بأس في أن نقيّد اسميكما في القائمة الاحتياطية » ! كذلك كان حظي في بداية الأمر . ولكني ، بعد أن ودّعتك في المطار ، وعدت الى بيتي دامعة العين ، وجدت في انتظاري كتاباً رسمياً من المشرف يدعوني فيه لحضور « دورة تدريبية » في يوم حددوه !

ولبثنا ، يا عزيزتي ، ثلاثة أيام ، ونحن المعلمات نتلقّى من المشرف محاضرات في الاحصاء ، هي التعليمات الواجب اتباعها في مباشرة هذا العمل . وقد توضّح لنا ، في ذلك ، ما يعنيه اصطلاح « بحث تكاليف المعيشة » ، وما أهدافه ، وكيف يتمّ اختيار الأسر التي يجري عليها البحث . . . قصارى القول — ولن أطيل عليك ، هنا ، خشية إملالك ! — ان الباحثة الاحصائية تلتزم بالقيام بزيارات دورية لاثنتي عشرة أسرة ، حيث تتسلّم ، في كل زيارة ، دفتراً من الأسرة قد فصلّت فيه نفقاتها على المشتريات والخدمات ، خلال الأيام العشرة الماضية ، وتسلّمها ، في الوقت ذاته ، دفتراً ناصع البياض ، لتتابع تدوين ما يستجدّ لديها من وجوه الانفاق ، في الأيام العشرة الجديدة . . وهكذا دواليك ، طوال حول كامل .

فهل راق لك البحث ياوداد !

الحق ، لقد راقني — أنا — حتى تمنيت ، وأنا على مقاعد الدورة التدريبية ، أن يسعفني الحظ ، فينتقل اسمي ، بقوة سحرية ، من قائمة الاحتياط الى قائمة الباحثين العاملين .

كان المشرف على البحث ، الذي علّمنا في الدورة وأحسن تعليمنا ، شاباً أقرب الى الكهولة . وكان عارفاً مستنيراً ، ومرحاً لطيفاً . . . (لا تظنّي ، يا وداد ، فان في بنصر يسراه خاتماً ، ما يفتأ يلتمع كلما أشار بيده في المحاضرة !) .

أقول : موظف مستنير عارف بدقائق بحثه ، وقد بسّطها لنا مستوفياً إياها ، ومبيّناً أهداف البحث : « ان الدولة الحديثة تُبنى على التخطيط ، والتخطيط لا ينهض الا على الرقم الاحصائي الصحيح . . . ويهمّ الدولة ، كل دولة ، أن تعرف في ما تعرف : ما وجوه الانفاق عند الناس ؟ ما السلع ، ما الخدمات ، الذي يزيد الطلب عليها ، في المدن وفي الريف ؟ ذلك ما يضع الدولة أمام جملة من الواقع تبني على أساسها مشروعاتها . . . » .

وبصّرنا بما يمكن أن يعترض سبيلنا من المتاعب . فالناس ، في دول العالم الثالث بعامة ، أقل تقديراً لمعطيات الرقم الاحصائي . . . ومن هنا ستجابهنا بعض الأسر المبحوث فيها ، بعصيان من نوع ما : « ولماذا نكشف لك ، يا آنسة ، عن أسرار معيشتنا ؟ (كذلك ستقول لكنّ ربّات البيوت غداً) ما تنوي الحكومة أن تفعل بهذه الدفاتر ، بعد أن نملأها أرقاماً ؟ أهناك ضرر يلحق بنا ؟ بربك أفصحي !! » .

ومن مظاهر مرحه أنه أوصى ، وهو يحاضر ، بأن توقف الباحثة ، خلال عام البحث ، مشروع زواجها ، ان كانت موشكة أن تتزوج ! لماذا ؟ لأن منزل الزوجية سيحول بينها وبين أن تولي البحث جلّ اهتمامها . والعمل فيه ذو شقّين : عمل « ميداني » ، وهو تلك الزيارات الدورية التي لا تفتر ، وآخر « مكتبي » ، أو بالأحرى « منزلي » ، وذلك حين تعمد الباحثة الى « تفريغ » محتوى الدفاتر كلاً في « استمارة » معدّة لذلك : فما اشترته الأسرة من الخبز ، مثلا ، خلال الأيام العشرة ، يجمع وينزّل في الحقل المخصص لهذه المادة ، وكذلك الخضار بأنواعها ، واللحوم ، وكل خدمة من الخدمات . . .

حتى اذا طرقت « وصيّة » المشرف مسامعنا ، وقد قدّمها الينا في لهجة هي بين الجد والمزاح ، ضجّت القاعة بالضحك ، وفي ذلك ترامت اليّ ، من وراء ، همسة تمتمت بها شفتا معلمة شابة شغوب

— ويلي ! ظلّ خطيبي أربع سنوات ، وهو ينتظر تخرجي الموعود من دار المعلمات !

ولست أدري كيف تلقّطت أذنا المشرف هذه الهمسة ، على خفوتها . . . فاذا هو يسرع الى التعليق ، بصوت صريح العبارة واضح النبرة :

— في هذه الحالة ، يسمح للهامسة وحدها بأن تتزوج ، في عام البحث ، استثناء من القاعدة !

على أن المشرف بدا لي ، في أعقاب الدورة ، على كثير من اللطف والكياسة : لقد جعل ، هو حظي يسعفني على نحو ما تمنيت ، فعيّنني باحثة احصائية ، مسنداً اليّ العمل في حي من أحياء دمشق ، لئن كان بعيداً عن منازلنا (يقتضيني الوصول اليه أن أستقلّ خطّين من خطوط المواصلات) ، فبحسبي أني ظفرت بدور أؤديه في هذا البحث الذي استهواني ، لقاء أجر شهري يعادل ربع راتبي !

أقول ، يا غاليتي ، ان البحث استهواني . ولكن كان عليّ أن أحتمل في سبيله مشقة ، وأنا التي حسبت العمل في هذا البحث هناءة موصولة . فاذا استثنيت ما أهدره من وقت في خطّي المواصلات ، ذهاباً واياباً ، في أيام الزيارات ، فثمة السير أحياناً في طرقات ضيّقة ، وأزقة ملتوية تعتم قبل أن تغرب الشمس ، وثمة أدراج موحشة ، وطوابق شاهقة الارتفاع ، وبنايات ينأى بعضها عن بعض ، وليس يغيب عن البال ما في ذلك للفتاة من حرج ومن ضيق . وفي مكابدتي لهذا العناء كله ، حدّثت خالتي ، وهي على فراش المرض ، بما أمارس من عمل لقاء أجر اضافي يعينني على اعالة اخوتي . . . فانفرجت أساريرها عن الرضى ، وقد وعت حديثي ، وقالت :

— مليح ! مليح ! أنت صبية شاطرة ، يابنت أختي !

عدت أصرخ في أذنها ، وانها لثقيلة السمع كما تعلمين :



— ولكنه عمل صعب ، يا خالتي . انه يربكني .

فباركت همتي ، وهي تسحب اللحاف حتى عنقها :

— لا بأس ، يا أسما ، لك الثواب في الدنيا والآخرة .

أرأيت ، يا صديقتي ؟! خالتي تريد الثواب لي — أنا الشابة !

وان أجهدت نفسي في أداء عملين اثنين معاً ، مؤجلة في ذلك زواجاً حلّله الله بين قلبين ، ولا تريد الثواب لنفسها — وهي قدم في الدنيا وقدم في الآخرة — بأن تمدّ يد العون لأبناء أختها بالقليل مما تملك ! فلأمض في جني الثواب لنفسي ، ولتبعده هي عن آخرتها .

• • •

هأنتذي ، عزيزتي ، تتساءلين بينك وبين نفسك : « وأين من هذا اللغو حديث ، قدّمت لي عن دفاتر معطرة ، أثرت به خاطري ، وأيقظت الهاجع من أحاسيسي ؟ إن هذه إلا شقشقة لسان ، تسفحينها على صفحات تبعثين بها ، من على ضفاف بردى ، اليّ أنا المرهقة الأسوانة التي نفت نفسها الى هذه البلدة النائية التي تحيط بها كثبان رملية » .

ولكن مهلا ، يا وداد . لعل ما يبدو لك ، الآن ، لغواً أو ثرثرة ، ان هو إلا استطراد يفضي بي الى أن أستعيد — وأنت معي — تلك الرائحة العطرة التي تضوّعت من تلك الدفاتر ، مرة بعد مرة ، حتى حملتني على أن أقص عليك خبرها كله ! وكيف يسوغ بغير ذلك « التمهيد » ، أن أمضي فأحدثك عن أنه كان ، في الأسر التي أنيط بي التعامل معها ، الموسر ساكن البيت الأنيق ، والفقير الذي تعثّر حظه فلم يجد الزمان عليه بسوى سكنى غرفة معتمة ، أو جزء منها ، في دار قديمة آيلة للسقوط !

وعلى حين أبدت معظم الأسر — وقد اختيرت بما يسمى « العيّنة العشوائية المنتظمة » — استعدادها للتعاون معي منذ زيارتي الأولى لها ، فان بعضها بذل جهداً في التفلّت من البحث دون أن يعوزه تقديم الحجج التي يحسبها دامغة لا تحتمل جدالاً : فأسرة ، عمادها رجلان وشقيقة لهما ، يتعلّلون بأنهم لا يشكلون « أسرة » ما داموا جميعاً « عزّاباً » ! ولكنهم عجزوا عن اجابتي عما يسمى ، اذن ، « تجمّعهم » الصغير هذا في البيت ؟ ورجل يطلعني على تقارير طبية تؤكد أن كريّاته الحمر كانت ملايين خمسة فأصبحت ثلاثة ، فهو اذن في حلّ من أن يبذل ، مساء كل يوم ، دقائق خمساً أو عشراً ، في تدوين مشترياته في الدفتر ، « حرصاً على صحته » ! وليس غريباً ، بعد هذا ، أن يستفصحني تاجر ، عما اذا كانت الدولة لا تهدف حقاً ، من وراء معرفتها وجوه الانفاق في بيته ، الى أن تتعرف إلى مقدار « دخله » ، فتفرض عليه بالتالي ضريبة أعلى ! !

ولست أدري كيف تيسّر لي أن أغدو في زياراتي المتوالية للأسر ، مرجعاً لهم في شؤون حياتهم ، على اختلاف تلك الشؤون : فمن أم ترجوني أن أقنع ابنتها بأن تتلطّف في معاملتها لخطيبها ، الذي لا ترغب في الزواج منه لأنها تحب آخر ، الى شابة ، تخرّجت من الجامعة حديثاً ، تسألني عما اذا كان من نتائج هذا البحث ، أن تسعى الدولة الى توظيف من يطلب عملا من المواطنين . ولعل أطرفهم ذلك الذي جابهني بسؤاله :

— ولماذا تدورين علينا ، نحن الفقراء ؟ عليك بالأغنياء ، الذين يأكلون اللحم والشحم والسمن العربي ، فاسأليهم عن مصروفاتهم ؟

ثم انه يسلّمني رسالة موجهة الى « الحكومة » استطعت بعد الجهد أن أفكّ الخط فيها ، وهذا نصّها :

« لحضرات رجال الحكومة الأكارم

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لماذا الاحصاء في الأحياء الفقيرة ومأكولهم معروف :

صباحاً : فول ومسبّحة وشاي ، على حسب الحال !

ظهراً : برغل مع خضار ، على حسب الحال !

أما المسا : فلافل ومخلل ، على حسب الحال !

ومحلّيهم : عنب وبطيخ اذا وجد ، أو خيار ،

سبحان العليم !

اذا أمرتم غيّروا معيشتنا ، حتى نصير مثل الأغنياء ، نأكل فراريج وفريكة بلحم الضأن وفطاير مشكلة ، ونتحلّى بالكنافة والبقلاوة ، لحتى قلوبنا تقوى ،

والسلام عليكم سيدي .

مذيّلا اياها بتوقيع : « المجذوب اليه تعالى » !

ومما يحزنني ذكره أن صاحب أسرة — وهو شيخ عاجز يعيش هو وزوجته وابنته الشابة العمياء على صدقات أهل الاحسان — قد تراءى له أن يجمع ، آخر الشهر ، ما صرف على معيشته ، فهاله أن يجده مبلغاً من الضآلة الى حد أن طارت نفسه جزعاً . . . واذا هو يستقبلني دامع العين :

— أنت نكّدت عيشتي !

— لماذا ، يا عماه ؟

— لأنك فتّحت عيني على ما كنت غافلا عنه . كنت آخذ من الأجاويد ، وأنفقه في صمت . وأما الآن ، فقد أدركت في أي ضنك أعيش ! لماذا فعلت بي ذلك ، يا بنتي ؟!

وكانت أن ذهبت ، في ذلك اليوم ، الى أمي أبكي . وقصصت ، في اليوم التالي ، حكايته على زميلاتي في المدرسة ، فلانت القلوب ، وجمعنا له مبلغاً ، حملته احدانا اليه ، دون أن تعلمه أني وراء هذا الصنيع . وقد نوينا أن نقدم له مثله ، مطلع كل شهر . فهل فعلنا خيراً ، أم أننا أخّرنا ما يريده الفقراء ؟!

وهل أحدثك بخبر تلك الزوجة ، التي راحت تتّهم رجلها بسعيه لدى الحكومة ليضع أسرته في نطاق البحث ، ويضعها هي في « امتحان » ؟! كان قد مضى على زواجها منه سنوات عشر ، دون أن تنجب له ولداً . وقد دأب الزوج ، الراضي على كل حال ، على أن يسلمها مصروف البيت ولا يراجعها فيه . فلما أوجب البحث عليها أن تملأ الدفاتر بتفصيل ما تشتري وما تدفع ، توهّمت أن زوجها انما قصد الى أن يعرف كم تنفق على البيت ، وكم « تدّخر في غير علمه » ، فيضبطها متلبّسة « بالخيانة المالية » ، فيجعل من ذلك مبرّراً لطلاقها ! ! . . . أم أحدثك عن ذلك الخياط ، الذي يصرف على أسرته كل ما في الجيب غير عارف مقداره ، وقد اكتشف ، في ظلّ البحث ، أنه ينفق مبلغاً أضخم مما كان يحسب ، فاذا هو يلوي على زوجته وبناته الخمس ، معنّفاً ومتّهماً اياهن بالاسراف والتبذير !

وانها لطريفة حكاية الأرملة العجوز ، التي اعتاد بقال الحي أن يحمل اليها يومياً ، بعد هاتف يتلقّاه منها ، كل ما تحتاج اليه . وانها لترجوه ، مع بداية البحث ، أن يوافيها بـ « فاتورة » بالمشتريات . . . ويوم آن له أن يعلم أن زبونته الطيبة تنقل فواتيره — بما فيها من « أسعار » ! — الى دفتر تسلمه الى «الحكومة»، خاف على نفسه مغبّة ذلك ، فكان أن حذف اسم العجوز — وانها لقعيدة بيت — من قائمة

زبائنه ، حامداً لنفسه اكتشافه الأمر قبل أن يقع لقمة سائغة في فم « وزارة التموين » !!

وأما الأسرة الرقم « ١٠ » (بتّ أسمّي الناس بالأرقام ، فقد غدوت « احصائية » حقاً !) ، فان أمرها معي لا يخلو من غرابة : سيدة نصف ، تتّسم بكثير من الطيبة والسذاجة ، لم يبد لي — من بيانات الأسرة التي قدّمتها في بداية البحث — أن أحداً يعيش في بيتها غير زوجها الذي لم تقع عليه عيني ، ولكن . . . ما بالها تسلّمني الدفتر ، في كل مرة ، وقد فاح منه عبير أخاذ ؟! (هأنذا أصل الى الحديث عن الدفاتر المعطّرة !) حتى اني أكاد أشفق من حمله الى بيتي ، خشية أن يسائلني أخي الأصغر « عادل » عن سر هذا الدفتر المعطر ، وليس عندي من اجابة أتعلّل بها ! والحق ، لقد شغلتني هذه الأسرة عن أمري ، فكنت أجول ، في كل زيارة ، بطرفي في أنحاء البيت ، مرهفة سمعي ، دون جدوى ! ولا أرى ، في ذلك ، من ربّة البيت ، الا التكتّم ، والا الترحيب الذي بات يتعاظم ، زيارة بعد أخرى !

وثمّ ماذا أحدثك ، بعد ، عن سائر أسري الاثنتي عشرة ؟ ان كنت قد أمللتك بالذي أسمعتك ، فلعلني أبعث في نفسك ابتهاجاً حين أحدثك عن ذلك التاجر (وهو نفسه الذي أبدى مخاوفه من أن تتعرّف الدولة على حقيقة دخله ، فتزيد من الضريبة المفروضة عليه) ، وقد انقلب من شكّاك بالبحث مناوىء له ، الى متعاون معه ، بل الى « صديق » لي أنا يبثّني هموم حياته . . . وما هي تلك الهموم ؟ انه في الخمسينات من العمر ، عصاميّ كما بدا لي من حديثه عن نفسه ، الا أنه قابض اليد حيسوب . استمعي اليه وهو يشكو لي اسراف بنيه وبناته ، فيحدثني — وقد دأب على أن يخاطبني بنداء التحبّب المفضّل لديه : « عمّو » ! — قائلا :

— تصوّري ، عمّو : ان ابني سمير ، طالب البكالوريا ، لا يرضى بالحذاء اذا قلّ ثمنه عن أربعين ليرة وأنا ، أبوهم ، أشتري الحذاء . . . بكم ؟ (وقام يحضر لي حذاء قديماً زريّاً ، رماه على الأرض تلقائي ، فأثار بذلك غباراً !) احزري بكم اشتريته ، عمو ؟

قلت ، وفي نفسي لو أسدّ أنفي بكلتا أصبعيّ :

— أنا لا أشتري الأحذية « الرجالية » ، يا عمي !

— تابع في مرارة : ١٢ ليرة ! ١٢ ليرة ، والله ! اشتريته من بائع متجول في سوق الحميدية . احزري كم مضى عليّ وأنا ألبسه ؟ عام كامل . عمّو ، هذا جيل شاذ لا يقدّر النعمة !

ولست أكتم عنك محبّتي لعجوز محنّكة ، ما تفتأ تبدي حرصاً على أن أتناول لديها ، في كل زيارة ، فنجان قهوة ، ثم تقرأ لي ما سطّره القدر — كما تقول — في فنجاني . ومن عجب أنها قرأت فحزرت أن شاباً يحبني قد تقدّم لخطبتي ، في الماضي القريب ، وأن ما نعاً في أسرتي قد حال دون القبول . . . فكيف تأتّى لهذه الغريبة أن تعرف ؟ أم أنها استقت ، بوسائلها ، هذه المعلومات عني ، « فقرأتها » لي في فنجاني ، كي تستثير اعجابي !

• • •

قلت : ان البحث استهواني ، وقد وجدت فيه متعة بالغة . الا أن ما أحتمل في سبيله من المشقة قد أخذ يتعاظم على نحو أكبر مما كان في حسباني ، ولئن كان قد ابتدأ مع بشائر الخريف ، فان ما يستقبلني منه ، في الغد ، مطر ووحل وزمهرير ! وقد عرضت أمري على المشرف ، فسرّني أن يتفهم مطلبي ، ويبدي استعداده ، لأن ينقلني الى حيّ مناسب متى توفّر الشاغر ، وأنه لمتوفّر — كما أكد — عما قريب ، بانسحاب باحثة تعمل جوار منازلنا ، ولم يضّن بالثناء على جهودي التي أبذل في زياراتي للأسر ، وفي تدقيق الدفاتر ، وتفريغها في الاستمارات . ثم لم يلبث ، بعد أيام ، أن أعلمني بأن الباحثة المعنيّة قد انفكت عن عملها ، بسبب استعدادها للسفر معلمة خارج البلاد .

ولست أنسى فرحتي وأنا أتنقّل ، برفقة الباحثة المنسحبة ، بين منازل الأسر في الحي الجديد . وجوه جديدة قيّض لي أن أتعرّف بها ، وبعضها ممن لم توفّق الزميلة السابقة الى كسب مودّتها . ولم يفتني ، بعد أن أنهيت جولتي تلك ، أن أعرّج على بيت خالتي : كان المرض قد اشتدّ عليها ، حتى أنها سألتني ، وهي زائغة البصر :

— أين كنت . . . يا أسما ؟

— في جولة على الأسر الجديدة ، يا خالتي .

وغابت عن وعيها .

وتعيّن عليّ أن أبلغ الأسر ، في حيّي القديم ، بانقطاعي عنهم ، مستصحبة باحثة بديلة درّبوها وعيّنوها مكاني . وقد أظهرت الأسر جزعاً على فراقي ، ولكن ذات الدفاتر المعطرة أسرعت تسألني ، وهي تحاول عبثاً أن تخفي اضطراباً وشى به صوتها :

— ومتى . . . متى تنقطعين عن زيارتنا ؟!

— زيارتي الأخيرة ستكون في اليوم الأول من الشهر الآتي .

— وكم الساعة ؟

أجبتها :

— كالمعتاد . . . أكون عندك مساء ، في حوالي الخامسة .

لكم أثارت هذه المرأة فضولي ! شهران ، وأنا أتلقّى منها دفاترها معطرة . . .

— اسمعي ، يا آنسة : ان ابن أختي ، قد لمحك ذات يوم ، وأنت خارجة من العمارة . فسألني عنك . هو . . . في الخامسة والعشرين . .

وكفت عن الحديث .

وددت لو أسألها : أهو من يسفح العطر على الدفاتر ، اذن ؟ فضول عارم جاش في صدري . ولكني تماسكت ، فليس من شأن الباحثة الاحصائية أن تعقد مثل هذه العلاقات بينها وبين الأسر ، كذلك لقّننا المشرف . وكم تمنّيت لو تزيد المرأة ايضاحاً ، ولكنها اكتفت بأن أخذت علماً بموعد زياراتي المقبلة وحسب .

أأصدقك القول ؟ لقد أمضيت ، يا وداد ، أياماً خمسة لم أعش مثلها قلقاً الا يوم ردّ مأمون على عقبيه . طفقت ، على غير رغبة مني ، أوازن بين مأمون وبين من يماثله سنّاً ، بين شاب أحببته فمنعت عنه لظروف قاهرة ، وبين آخر غامض السمات مجهول ! أتراه يملك مالا يسكّن به خوف أسرتي من صروف الزمان ، ويبثّ في صدر أمي طمأنينة الى أن راتب ابنتها لن تمتد اليه يد بسوء ؟ أم أنه على غنى يقرّني معه في البيت دون عمل ؟ أظريف هو ، مهضوم ، كمأمون ؟ أم أنه فظّ ، غريب الأطوار ؟ يغلب على ظني أنه رقيق الحسّ ، والاعلام يدل تعطيره الدفاتر في بيت خالته ؟ . . . خواطر شتى راودتني ، لم أملك لها دفعاً !

ومضيت ، في جولتي الأخيرة ، أزور أسري التي سأفارقها الى الأبد ، تلك التي انعقدت بيني وبينها صداقات متينة ، لم أكن أحسب . . .

بكى الشيخ العاجز على فراقي ، وهو يفصح لي — يا للعجب ! — عن يقينه بأني وراء المبلغ الذي بات يصله في مطلع كل شهر !

وهلّل « المجذوب » ، لما رآني ، صائحاً :

— يا مية هلا بالحكومة ، التي ستحلّينا بالكنافة والبقلاوة ، حتى تقوى قلوبنا .

وعلى حين أصرّت الأسرة ، المؤلفة من الرجلين وأختهما العزباء ، على أنهم لا يشكّلون « أسرة » ، وأنهم كانوا في غنى عن أن يسلكوا في هذا البحث الذي يحمّلهم « عناء » رصد النفقات اليومية ، فقد شكرتني الزوجة العاقر لما أنزلت على نفسها من سكينة ، كما شكرتني الأرملة العجوز على وساطتي لدى بقال الحي ! وأما الخياط ، أبو البنات الخمس ، فقد أنشأ يخاطبني بمودة :

— لقد لفتّ نظري ، يا آنسة ، وأنت لا تدرين ، الى أهمية أن ينظّم رب الأسرة حسابه . فأنا ، الآن ، أعرف مقدار ما أنفق على وجه التفصيل ، وصرت أعرف بالتالي مقدار ما يدخل جيبي . لقد نويت أن أدخر ، وقد باشرت فعلا . وسوف أستمرّ في تدوين نفقاتي ، حتى بعد أن ينتهي البحث . ولكن ، لم تبيّني لنا ، يا آنسة ، لم عزمت على فراقنا ؟

وأما التاجر العصامي ، فقد أعلن ، على مسمع من أفراد أسرته ، بصوت حميم أسيف :

— ولمن أشكو بعدك ، اسراف اولادي ، يا عين عمّو ؟!

أجبت مبتسمة :

— للباحثة الجديدة ، اذا شئت ، يا عمي .

— أتراها تصغي اليّ اصغاءك ؟

وأبدت البصّارة ، كعادتها ، حرصاً على أن أتناول لديها فنجان القهوة . . . وها هي ذي تقرأ لي آخر ما « سطّر القدر » في فنجاني ، فتبشّرني بأن شاباً طويلا ، أنيقاً ، سيتقدم ، في القريب العاجل ، لطلب يدي !! فاذا هي . . . تستحثّ خطاي ، لزيارة الأسرة الرقم « ١٠ » !

كانت المرأة ، تلك التي تعمّدت أن أدع زيارتها لآخر الجولة ، تنتظر في بيتها على أحرّ من الجمر . والحق ، كنت — أنا أيضاً — في مثل حرّها ولظاها ! وقد بادرتني ، غير مخفية قلقهـــا :

— تأخرت . . . حتى خشيت ألا تأتي !

أجبتها ، في لهجة اجتهدت أن أضفي عليها هدوءاً :

— كيف ! ان عليّ أن أجمع ، اليوم ، آخر الدفاتر . . . من هذا الحي . . . الذي نقلت منه . . . (واسترسلت اداري قلقي) حتى أفرغها في الاستمارات . . .

كانت عيناها مشدودتين الى الباب ، وكأنها تنتظر أن ينفتـــح ، فجأة ، عن انسان ما ! وكنت أعاني ، أنا أيضاً ، وطأة هذا التوقع ، وأتمنى لو ينفرج الباب ، فيظهر فيه ذلك الشاب الطويل الأنيق ، وقد أضاف خيالي المجنّح الى أوصافه : شعراً أسود ، وربطة عنق زاهية ، متحدّثاً اليّ بلباقة وظرف ، فيأسرني من الوهلة الأولى . . .

وران صمت ثقيل ، طوال ثواني خلتها ساعات . . . طالبت ، بعدها ، صاحبة البيت بالدفتر . وهنا ، رأيتها تتمتم بكلمات ، لم أفهم منها الا أنها تستأذنني في شيء . ثم هرعت الى خارج الغرفة ، لتعود ووراءها شاب ، في نحو الثلاثين ، يسير متعثر الخطا ، فتقدّمه اليّ :

— اسماعيل ، ابن أختي . . . الذي حدّثتك عنـــه !

ولا بد من أن أبيّن لك ، يا صديقتي الغالية ، أن اسماعيل هذا . . . لم يكن طويلا ، بل قصيراً أكرش ! ولا كان ذا شعر بما في الكلمة من معنى ! ولم تكن ربطة عنقه زاهية ولا معقودة بعناية ! وأما ما تلفّظه لسانه ، فكان كلمتين اثنتين : « مساء الخير » ! ثم جلس تلقائي ، مطرقاً نديّ الجبين (وكأنني أنا الخاطب ، وهو العذراء في خدرها !) وأخذ يختلس اليّ نظرات ، كيف أصوّرها لك ! وقد أرسلت وأنا أمتحنه بعيني ، نظرة فاحصة الى قدميه : وياله ، يا وداد ، من حذاء ! لقد ذكرني بذاك الذي اشتري ، باثنتي عشرة ليرة ، من بائع متجول في سوق الحميدية ؟!

وانطلقت عائدة الى بيتي ، وأنا أسائل نفسي عما اذا كنت قد خنت — بالفكر — جارنا مأمون ، اذ تقبّلت نفسي فكرة أن أستبدل به شاباً آخر ؟! وأيقنت أن عليّ أن انتظر كرور السنين ، الى يوم يشبّ اخوتي ، فيستغنون عن معونتي . . . اذ ذاك يكون لأهلي أن يقبلوا طلب مأمون ، ان هو ظل — حتى ذلك العمر — على العهد مقيماً !

* * *

فهل تراني أفلحت ، يا وداد العزيزة ، في اجتذابك الى صفحاتي الطويلات ؟

هأنتذي تتساءلين ، بعد طويل الصبر الذي بذلت في الاصغاء اليّ : « وأية مفاجأة ! » ، وقد دار في خلدك — ولا ريب — أنها ستكون بين يدي ذلك المجهول الذي دأب على أن يضمّخ بالعطر دفاتر خالته !

ولكن لرسالتي — اذا ظللت تحسنين الاصغاء اليّ ، يا عزيزة — بقية ذات أهمية : فبعد أن وصلت بيتي ، في ذلك المساء الذي لن تمحوه الأيام من ذاكرتي ، لاحظت غياب أمي ، أجل ، وقرأت في وجوه اخوتي وجوماً وكآبة : كانت خالتي الحاجة عائشة ، قد . . . فارقت الحياة .

ولأنني حريصة على أن تظل رسالتي هذه ، مفعمة بالصدق والصراحة ، غير مشوبة بالزيف والرياء ، أعترف لك بأني لم أحسّ نأمة حزن تختلج في صدري ! وأما ما دار في خاطري ، منذ تلك اللحظة ، وأما ما امتد في أفق خيالي ، فهو حياة جديدة تغمر أسرتي بالسعادة وتغمرني : أن يعيد مأمون الكرّة ، فيلقى ما يتمنى من استجابة ! أتراني أنانية ، يا وداد ؟ أم أن الظروف القاسية ، التي تضافرت عليّ حتى الأمس القريب ، هي التي أوصدت مغاليق قلبي فحالت بيني وبين أن أستشعر حزناً على موت خالتي ؟ أفلم تكن المرحومة تردد على مسامعنا ، حتى وهي على فراش الموت : « اذا متّ فكلوا من تركتي . . . وترحموا ، أولا . . . ! » .

ولكن عليك رحمات الله ، يا خالتي ، فان ما يصيب أختك — أمي — من تركتك ، هو دار يسكنها أولادها ، وثروة صغيرة تعينهم على اجتياز فلوات الحياة ، الى أن يشبوا ، ويتخرجوا من دراساتهم الجامعية .

وعاود أهل مأمون اتصالهم بنا .

وما خاب أملي : فانما مأمون ، وليس سواه ، هو الشاب الموعود : الطويل ، الأنيق ، الذي سيتقدم ، في القريب العاجل ، لطلب يـــدي !

ذلك ما أردت أن أقصّه عليك من خبري .

فأما ما يخصّك أنت ، يا وداد ، فان الخبر الموثوق ، الذي تناهى اليّ أمس الأول ، هو أن ابن عمك . . . قد بدت خطبته لسواك غير موفّقة ، فبعد « الاملاك » الذي كان ، وفرحته الكبرى بكنزه الفريد ، تبيّن له أنها . . . ماذا أقول ؟ . . . لقد كانت على . . . ذلك مالا يجوز أن يسطّر في رسالة ! ففسخ الخطبة ، يا صديقتي الحبيبة ، وقعد ملوماً محسوراً !

مدرستنا بخير . زميلاتك المعلمات والمديرة يسلمن عليك واحدة واحدة ، وكذلك تلميذات صفك الذي غادرته . أهلي بخير ، تحياتنا جميعاً اليك . والى لقاء يجمع الشمل ، قريب ●

فاضل السباعي — دمشق

حاول الانسان عبر الأجيال المتعاقبة التحكم في قوى الطبيعة ، وان تفاوتت في ذلك مستويات نجاحه . ان جهوده في هذا المجال كانت تنتهي على الأرجح الى قدر معين من النجاح وذلك عندما كان يحاول أن يكبح جماح قوى الطبيعة ويملك زمامها ، بدلا من محاولة قهرها والتغلب عليها ، وقد استحوذت هذه المشكلة أفكار الكثيرين من الرجال ، وكان « ليوناردو دافينشي – Leonardo da Vinci » وهو من أعظم العبقريات الميكانيكية والهندسية في عصره ، أحد الذين فتنتهم احتمالات استخدام المياه الجارية المتدفقة .

ان أبسط الوسائل للتحكم في مجرى المياه ، هو أن تبني سداً . والسد في أبسط أشكاله عبارة عن جدار من الأرض ، أو الصخر ، أو الخرسانة أو الصلب ، بل وحتى من الخشب يشيد عبر الوادي ، أو عبر هوة شقها السيل ، لكي يحجز مياه النهر أو الوادي .

كيف يمكن الاستفادة من السدود

ان النهر الذي ينحدر بشدة الى البحر قد يكون في فصل الشتاء سيلا عرماً يتدفق بقوة ، ولكنه في فصل الجفاف يصبح شحيحاً قليل المياه ، فاذا ما أقيم سد في مجرى النهر ، فان مياه الأمطار الغزيرة التي كانت تشق طريقها الى البحر مندفعة بعنف تحتجز في « خزان – Reservoir » للانتفاع بها في وقت تشح فيه المياه .

ففي بعض الأحيان تفيض مياه الأنهار كما يحدث بالنسبة لنهري الفرات ودجلة في العراق ، ونهر النيل في مصر ، فتطمر مساحات شاسعة من الأرض وتجعلها غير صالحة للزراعة . والسد هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها حجز وتجميع كميات هائلة من المياه التي كانت تذهب هدراً ، واستغلالها في تنظيم عمليات ري الأراضي الشاسعة الواقعة بالقرب من السد



سد العاقول في المدينة المنورة .

وتحويلها الى أراض زراعية منتجة تساعد بالتالي على ازدهار المنطقة التي يقع فيها السد . وقد قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز « **وجعلنا من الماء كل شيء حي** » .

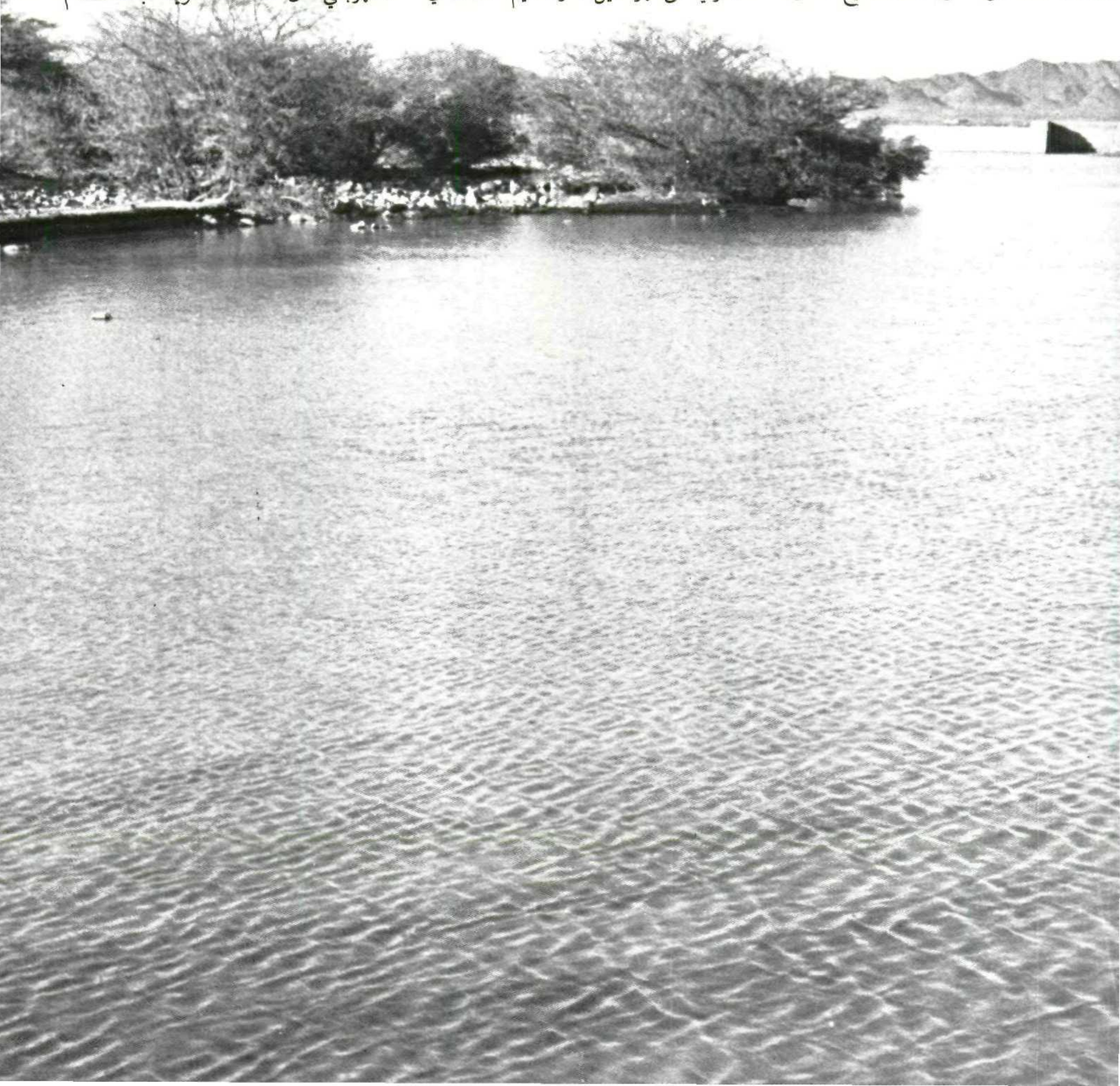
والى جانب هذه الفائدة، هناك فائدة أخرى كبيرة الشأن ، وهي توليد القوى الكهربائية . فعندما تتدفق المياه من بوابات السد بقوة ، فانها تستطيع أن تدير الطوربينات المائية ، التي تشغل بدورها المولدات الكهربائية . ويطلق على الكهرباء التي تولد بهذه الطريقة اسم « القوة الكهربائيـة الهيدروليكية — Hydro-Electric Power » . ومن المعروف أن جميع السدود الضخمة المنتشرة في أنحاء مختلفة من العالم مزودة بمحطات لتوليد الكهرباء .

ومن المنافع الأخرى للسدود انها تستطيع أن تجعل الملاحة في الأنهار صالحة لمسافات طويلة ، وذلك برفع منسوب مياه الأنهار وجعلها تتدفق ببطء .

نبذة عن تاريخ السدود

يرجع تاريخ انشاء السدود الى آلاف السنين ، فقد جاء في الوثائق التاريخية أنه كان هناك سد ترابي ضخم على نهر دجلة ، وآخر صخري على نهر النيل ، وقد أقيم كلاهما في العصور القديمة . كذلك جاء في الوثائق التاريخية أنه كانت هناك سدود في الهند وفي سيلان يرجع عهدها الى عام ٥٠٠ قبل الميلاد . كذلك شيد الرومان سدوداً كثيرة في ايطاليا وشمال أفريقيا .

كان الغرض الأساسي من بناء السدود في العهود القديمة هو تخزين أكبر قدر من مياه الأمطار والسيول واستغلالها في ري الأراضي المجاورة ، ولكن بعد أن تمكن الانسان من تسخير هذه المياه في توليد الطاقة الكهربائية ، أصبحت السدود تقام في مناطق نائية غير مأهولة بالسكان ، ذلك أنه أصبح بالامكان نقل التيار الكهربائي الى مسافات طويلة باستخـدام



الكابلات . وبازدياد قيمة الأرض المزروعة بالغلال والحبوب ، أصبح الناس يطالبون ببناء السدود لحمايتهم وحماية أرضهم من أخطار الفيضانات العارمة التي كانت تتسبب في اتلاف المحصولات وهدم المنازل والبيوت وجرف كل ما يقف في طريقها .

ومن السدود الأثرية القديمة سد « سيسد » بالقرب من الطائف بالمملكة العربية السعودية الذي بناه عبد الله بن معاوية سنة ٥٨هـ والذي ما زال يحتجز كميات كبيرة من الماء . وكذلك سد مأرب في اليمن الذي يقال أن سيل العرم قد دمره ، وما تزال آثاره باقية حتى اليوم .

هناك أربعة أنواع رئيسية من السدود هي : « سدود ترابية — Earth Dams » و « سدود ركامية — Rock - Fill » ، و « سدود تثاقلية — Solid Gravity » ، و « سدود عقدية — Arch Dams » ويتوقف نمط السد الذي يراد تشييده في مكان معين على عدة عوامل ، منها الطبيعة الجيولوجية للموقع ، وتكوين طبقاته ، والغرض الذي يبنى السد من أجله ، ونوع مواد البناء المتاحة في المنطقة المجاورة .

السدود الترابية

تبنى هذه السدود عادة عندما يكون الموقع غير صالح لاقامة سد خرساني ثقيل الوزن ، وعندما تتوافر في المكان المقادير الكافية من التربة المناسبة لاقامة مثل هذا النوع من السدود . تفرش طبقة من التربة الصلصالية ، أو أي نوع من أنواع التربة الأخرى القليلة المسامية ، في قعر جسم السد على عمق كبير للحيلولة دون رشح المياه أو تسربها من قاعدة السد السفلى . أما جوانب السد المائلة فتكون مسطحة الى حد ما ، وتدعم واجهته المقابلة للتيار عادة بالأعشاب أو الحصباء ، أما الواجهة الأخرى فتدعم بطبقة من الصخور المفتتة . وأكبر سد من هذا النوع في العالم هو سد « فورت بيك — Fort Peck » القائم عبر نهر ميسوري في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويبلغ طوله ٣٩٣٣ متراً تقريباً ، ويحتوي على ١٠٩ ملايين ياردة مكعبة من التراب ، أي حوالي مائة مليون متر مكعب تقريباً .

السدود الركامية

يبنى هذا النوع من السدود في المناطق النائية عن مصادر التموين بالاسمنت والتي لا تتوافر فيها أراض صالحة للزراعة ، وهو يبنى عادة عبر هوة أحدثتها السيول ، حيث يمكن اقتطاع الصخور اللازمة للسد من جوانب الهوة ، فتسقط مباشرة في الموقع . وهذه السدود شبيهة بتلك المشادة بالتراب .

السدود التثاقلية

وهي أكثر أنواع السدود انتشاراً ، إذ يمكن أن تبنى في أي مكان تقريباً وهي تشيد من الخرسانة المسلحة . ومن ميزاتها أنا تقاوم ضغط المياه بثقلها وحده . ويعتبر « سد جراند كوليه — Grand Coulee » المقام على نهر كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية أكبر سد من نوعه في العالم .

السدود العقدية

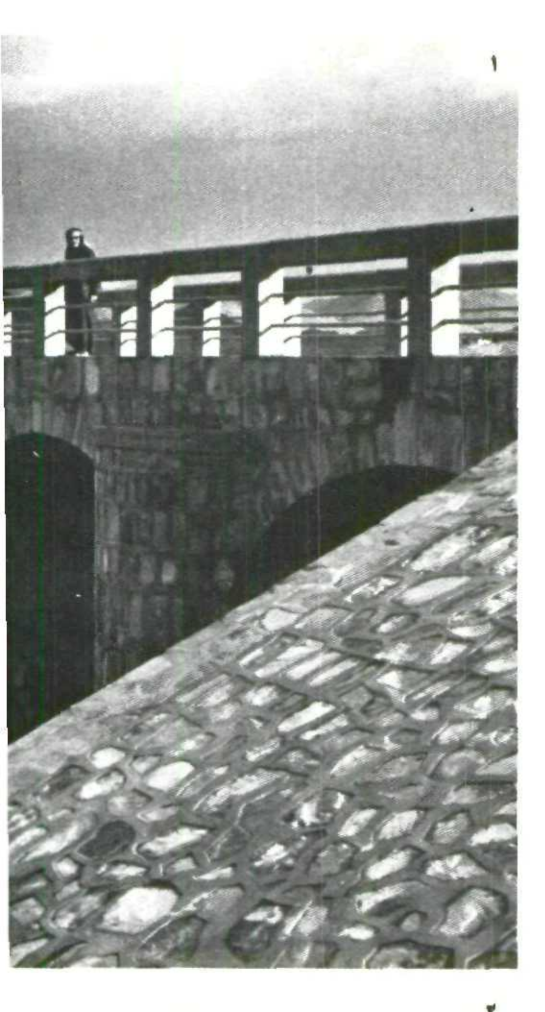
ويبنى مثل هذا النوع من السدود في الممرات الجبلية الضيقة ذات الجوانب الصخرية الصلدة ، وهو يصنع من طبقات من الخرسانة القليلة السمك . ويتحول ضغط المياه فيها الى الجدران الصخرية عبر قناطر وعقود يتضمنها السد .

ومن السدود الحديثة العهد في العالم العربي السد العالي في مصر وهو يعد واحداً من أعظم المشروعات الهندسية التي نفذت في القرن العشرين . وقد أقيم في أسوان على مقربة من خزان أسوان الذي بني في سنة ١٩٠٢ . ويبلغ طول السد العالي ٣٨٣٠ متراً وعرضه عند القاعدة ٩٨٠ متراً ، ويتدرج على هيئة هرم الى أن يصل عند القمة الى ٤٠ متراً ، وارتفاعه ١١١ متراً فوق قعر النهر . والهدف من بناء السد العالي هو استصلاح مساحات شاسعة من الأراضي الواقعة بالقرب منه ، وبالتالي زيادة المنتجات الزراعية وتنظيم عملية الري ، ووقاية البلاد من أخطار الفيضانات التي كانت تتعرض لها ، وكذلك توليد طاقة كهربائية تقدر بحوالي ١٠ مليار كيلوواط/ساعة سنوياً .

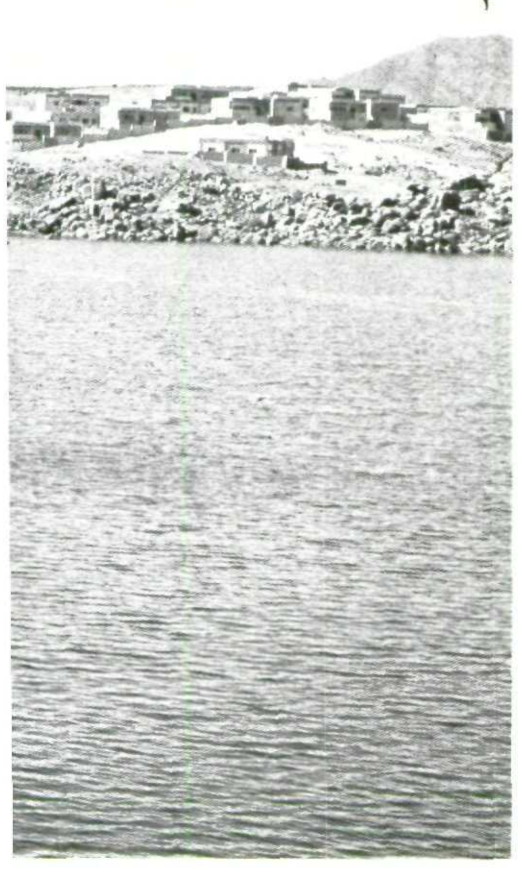
مشاريع السدود في المملكة

الأرض الطيبة تعطي ثماراً طيبة ، والمملكة العربية السعودية وقد حباها الله سعة في الأرض تسعى جاهدة لتنمية مواردها الزراعية ، وذلك عن طريق استصلاح المزيد من الأراضي القابلة للزراعة . وقد بادرت وزارة الزراعة الى دراسة موارد المياه في المملكة وامكان تنميتها وتنظيمها وتخزينها ، ووجدت أن التحكم في مياه السيول والأمطار عن طريق انشاء السدود هي أنسب الطرق لدرء أخطار السيول والفيضانات التي

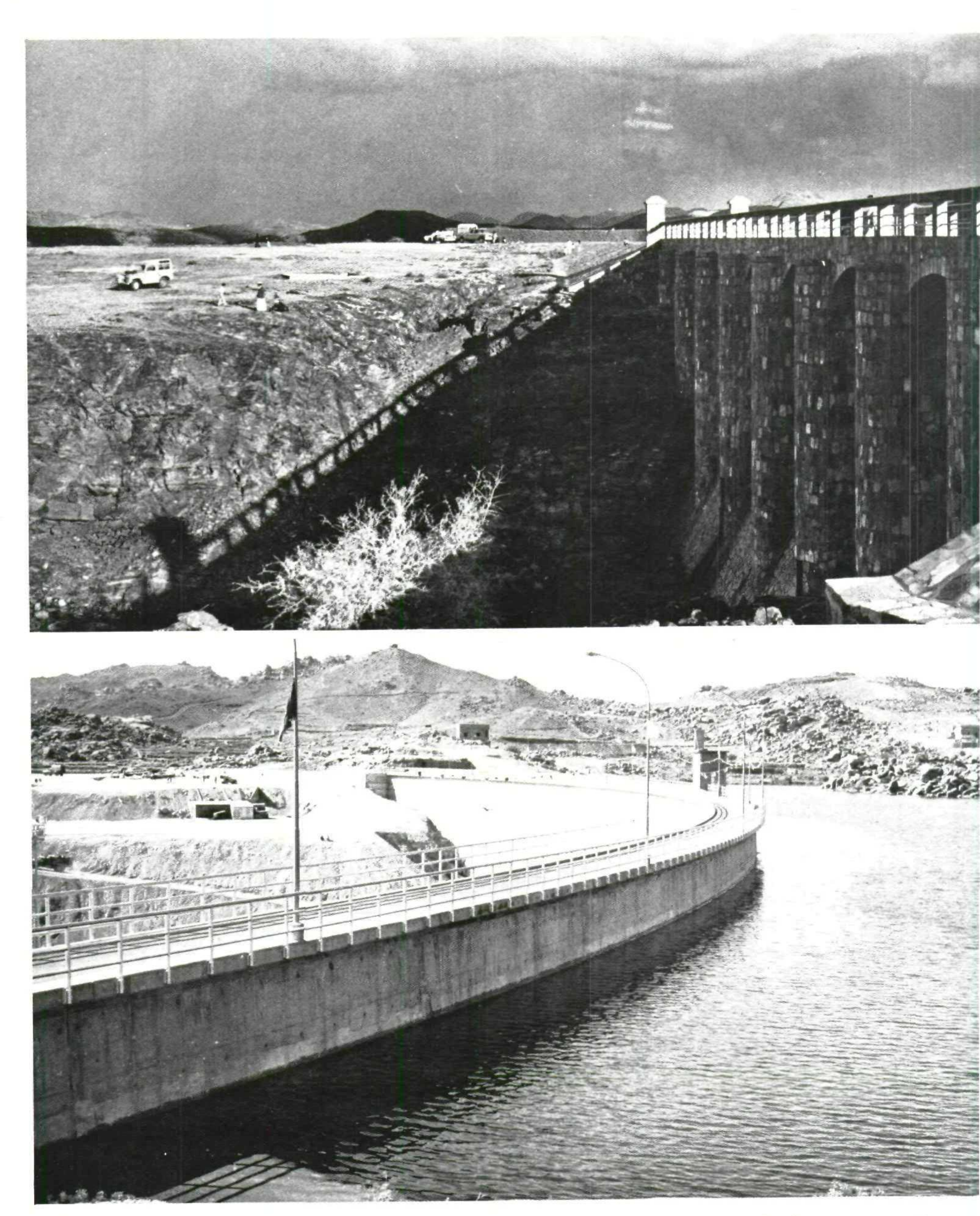
١



٢



١ — سد عكرمة ويقع على وادي وج بالطائف ، ويكون



برة تتسع لمليونين ونصف المليون متر مكعب من المياه .

٢ – سد أبها ، ويقع على مسافة كيلومترين اثنين من مدينة أبها .

كانت تهدد الأراضي الزراعية والأهالي في كثير من مناطق المملكة . كما أن انشاء السدود يجعل من السهل الاستفادة من مياه السيول والأمطار التي تضيع هدراً ، كما أن ذلك يسهم الى حد كبير في تنمية وتغذية الآبار التي تستعمل لأغراض الري والشرب .

وانطلاقاً من هذا المبدأ ، وبناء على الدراسات الفنية والاقتصادية التي أثبتت جدوى اقامة مثل هذه المشاريع ، قامت وزارة الزراعة والمياه في المملكة بانشاء عدد من السدود في أماكن عديدة متفرقة في المملكة ، ويعتبر سد وادي جيزان من أكبر وأضخم السدود التي قامت الوزارة بانشائها حتى الآن .

سد وادي جيزان

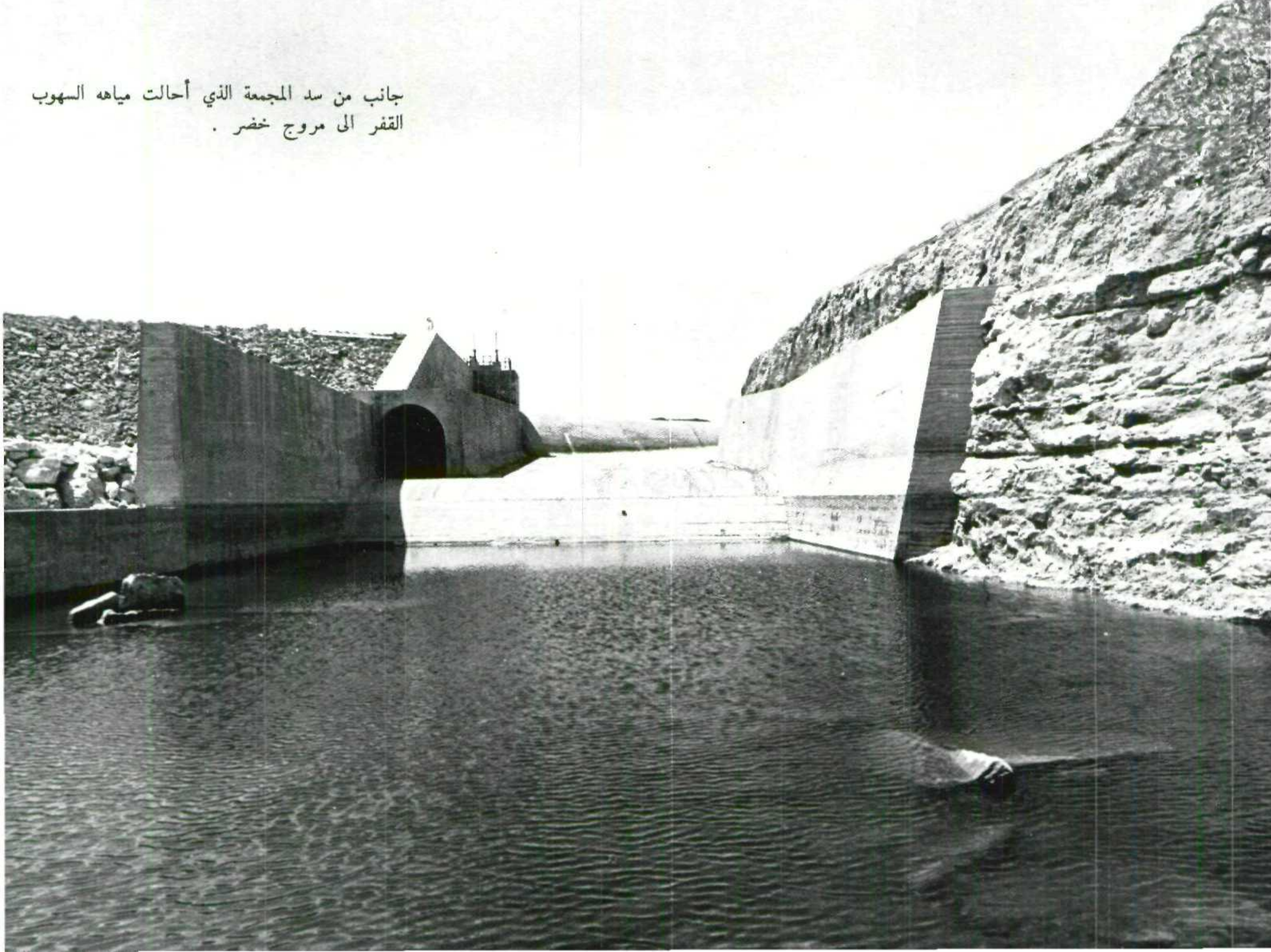
تعتبر منطقة وادي جيزان من أهم المناطق الزراعية في المملكة نظراً لصلاحية أرضها ومناخها ومواءمتها لجميع المحاصيل الزراعية الهامة تقريباً . وتأتي موارد المياه اللازمة للزراعة من السيول ومياه الأمطار الأمر الذي جعل الزراعة في هذا الوادي الخصيب تنفرد بميزتين هما : الزراعة البعلية ، وهي التي تعتمد على مياه الأمطار والطمي الذي ينجرف مع مياه السيول ، فاذا جادت السماء بأمطار وفيرة كان الموسم الزراعي جيداً ، وإلا فان الجفاف يدب في الوادي . والزراعة التي تعتمد على عمليات الري حيث يقوم المزارعون باقامة حواجز ترابية لتجميع الأمطار ومن ثم استخدامها في عمليات الري . ولكن هذه الطريقة كانت دائماً مهددة بفعل السيول الجارفة التي كانت تأخذ في طريقها هذه الحواجز الرملية وتدمر المزروعات مما يؤدي بالتالي الى خسائر فادحة تلحق بالمزارعين الذين يعيشون على ما تنتج الأرض من غلال وخضار . ففي عام ١٣٧٢هـ قام فريق من منظمة الأغذية والزراعة الدولية بمسح المنطقة ، وقد أشارت الدراسات التمهيدية الأولى الى وجود امكانات زراعية كبيرة في منطقة وادي جيزان . كما أوصت باقامة سد في المنطقة لدرء أخطار السيول والفيضانات عنها وتخزين مياهها بصورة يمكن معها التحكم في هذه المياه وصرفها وفق حاجة الأراضي الزراعية في المنطقة .

يقع سد وادي جيزان على بعد ٥٠ كيلومتراً الى الشرق من مدينة جيزان وبين سلسلة من الجبال تنتهي غرباً بسهل ساحلي صالح للزراعة ، وقد اختير موقع يدعى « ملاكي » ليكون موقعاً للسد ، ويرتفع هذا الموقع عن سطح البحر حوالي ١٣٥ متراً .

هذا وقد صمم السد من النوع الثقلي ويبلغ ارتفاعه ٤١,٦٠ متراً فوق مجرى الوادي وطول جسمه ٣١٦ متراً ، وأما عرض السد عند القاعدة فيصل الى ٤٠ متراً ، وعرض الطريق المبني فوق السد ٣,١٥ أمتار .

وقد أقيمت في قاعدة السد فتحتان مؤلفتان من أنبوبين من الفولاذ الخاص يبلغ قطر كل منهما ١,٧٠ متراً وذلك لضبط كميات المياه التي يسمح بخروجها من السد لري الأراضي الزراعية .

جانب من سد المجمعة الذي أحالت مياهه السهوب القفر الى مروج خضر .



وتبلغ سعة السد التخزينية ٧١ مليون متر مكعب من المياه يمكن الاستفادة من ٥١ مليون متر مكعب منها في أعمال الري ، كما وتغطي بحيرة السد مساحة قدرها ١٤٠٩ هكتارات .

ويعتبر سد وادي جيزان بالغ الأهمية بالنسبة للمنطقة إذ دخلت منطقة جيزان مرحلة جديدة من حياتها الزراعية ، فعن طريق هذا السد أمكن الاستفادة من كميات هائلة من المياه ، وسيكون الآن بالامكان اضافة ثمانية آلاف هكتار من الأراضي الزراعية الجديدة الى الرقعة الزراعية المتوفرة حالياً ، كما أصبح ممكناً ادخال محاصيل زراعية جديدة الى المنطقة من شأنها أن تسهم في رفع الدخل الوطني وتأمين أعمال زراعية لعدد كبير من أبناء الوادي ، اضافة إلى امكان التحكم في مياه السيول والأمطار وحماية المزارع والمزارعين من الأضرار الجسيمة التي كانت تلحق بالمنطقة ، كما أن من شأن كل ذلك أن يسهم الى حد كبير في تطوير الأساليب الزراعية واستخدام الآلات الزراعية الحديثة التي تعمل وزارة الزراعة والمياه على تأمينها للمزارعين وتقديم النصح والارشاد في كل ما يتعلق بالشؤون الزراعية .

كما أن هناك خطة رئيسية مرسومة من قبل وزارة الزراعة والمياه لتنمية الوادي تشمل ، انشاء شبكات ري حديثة في منطقة زراعية تبلغ مساحتها ثمانين ألف دونم ، وانشاء مزرعة نموذجية للتجارب الزراعية تبلغ مساحتها ٤٠٠ دونم وتحسين الوسائل المتبعة في الزراعة باستخدام مختلف المعدات والآلات الزراعية المتطورة .

وهناك عدد آخر من السدود في المملكة تلعب هي الأخرى دوراً فعالا في انماء الثروة الزراعية وتغذية الآبار الجوفية في هذه المناطق من بينها :

سد وادي حنيفة

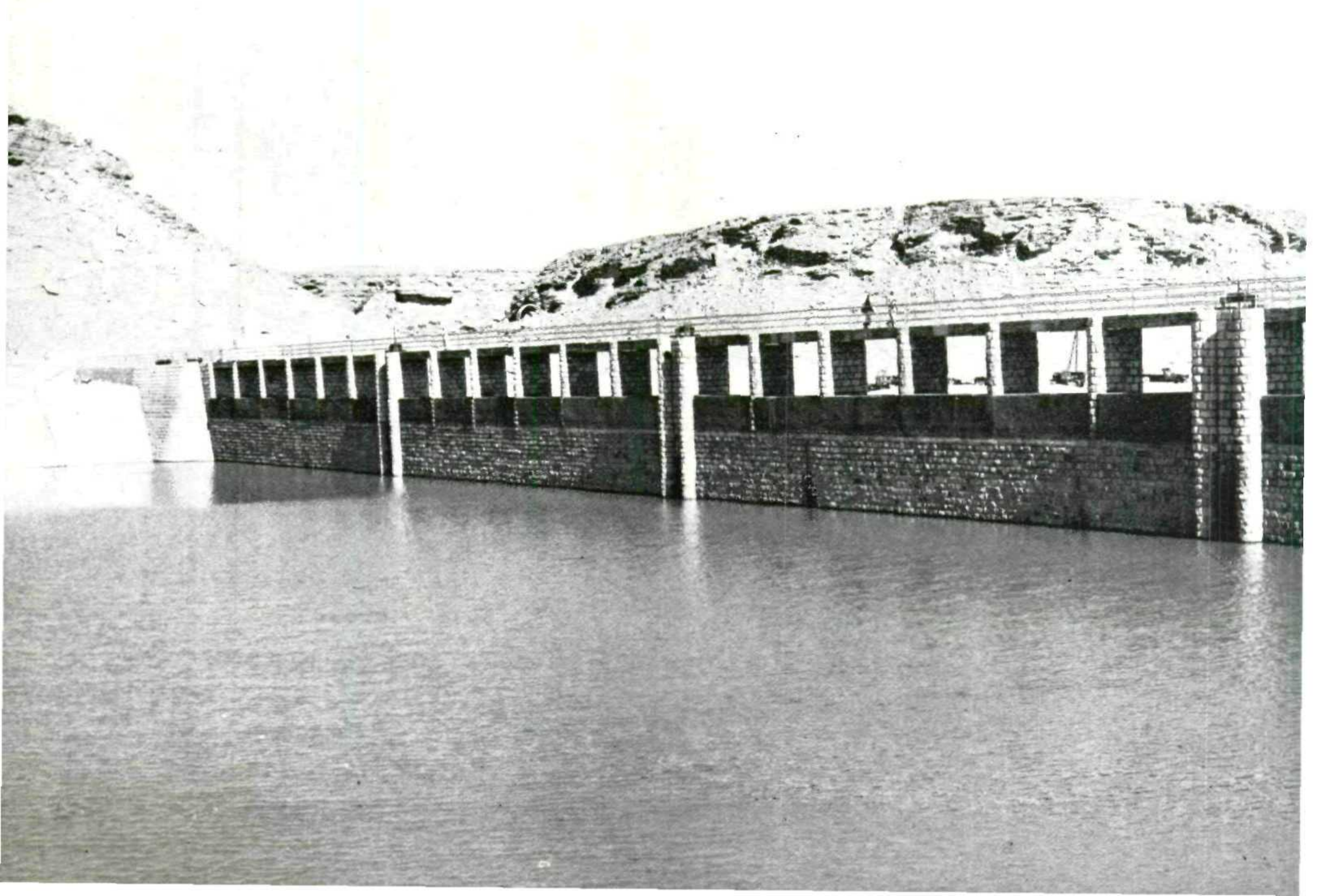
ويقع على بعد حوالي عشرة كيلومترات الى الشمال الغربي من مدينة الرياض . وكان الهدف الرئيسي من انشائه هو حماية مدينة الرياض من أخطار السيول العارمة التي كانت تهددها ، هذا بالاضافة الى تغذية آبار المنطقة التي تستخدم لأغراض مياه الشرب والزراعة .

وسد وادي حنيفة من النوع الخرساني الثقلي، ويبلغ طوله بين جانبي الوادي ٥٦٠ متراً وطاقته التخزينية حوالي ١,٥ مليون متر مكعب .

سد أبها

ويقع على مسافة كيلومترين من مدينة أبها ، والغاية من انشائه هو تخزين سيول وادي أبها لتأمين مياه الشرب ، وهو من النوع الثقلي المصنوع من الخرسانة ويبلغ ارتفاعه ١٣٧ متراً وطوله ٣٥٠ متراً وعرضه ٣,٥ أمتار . ويبلغ الحد الأقصى لتخزين المياه فيه ٢٢٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر وتبلغ سعة الخزان عند الحد الأقصى لمنسوب تخزين المياه ٢٨٦ ألف متر مكعب .

سد وادي حنيفة في منطقة الرياض .



سد المجمعة

ويقع في وادي نمل على بعد سبعة كيلو مترات من مدينة المجمعة، والهدف الرئيسي لانشائه هو حماية المدينة من أخطار السيول التي كانت تهدد المنطقة باستمرار، والاستفادة من مياهه في تنمية موارد المياه وتغذية الآبار المجاورة التي تستخدم لأغراض الشرب والزراعة. وهو من النوع الركامي المضغوط المحمي بركام من الأحجار للأسطح الخارجية، ويبلغ طول الجزء الركامي ٣٦٠ متراً وارتفاعه ١١ متراً، وتبلغ سعة السد التخزينية حوالي ١,٥ مليون متر مكعب من المياه.

سد عكرمة

ويقع في وادي وج بالطائف، ويعمل السد على حماية الطائف من أخطار السيول، كما يسهم في تنمية موارد المياه وتغذية الآبار وزيادة رقعة المنطقة المزروعة بالخضار في المنطقة. وسد عكرمة من النوع الخرساني ويصل بين جبلين يمر بينهما وادي وج، ويبلغ طوله حوالي ٧٠ متراً، ويكون أمامه بحيرة تتسع لحوالي ٢,٥ مليون متر مكعب من المياه.

سد بطحان

ويقع في وادي بطحان بالقرب من المدينة المنورة وهو من النوع الخرساني الثقلي. وهو عبارة عن سدين غير متصلين على الوادي تفصلهما جزيرة صغيرة من الحمم البركانية البازلتية القابلة لامتصاص الماء. ويبلغ طول الفرع الرئيسي للسد ١٧٦ متراً وتبلغ سعته التخزينية حوالي ٨٠٠ ألف متر مكعب من المياه.

هذا وتخطط وزارة الزراعة والمياه لاقامة عدد آخر من السدود في أنحاء متفرقة من المملكة منها ما هو تحت التنفيذ في الوقت الحاضر، ومن بينها سد وادي ليه بالطائف، وسد على وادي حنيفة بمنطقة العلب بالدرعية، وسد على وادي الريمة بشقراء ويقع على بعد حوالي أربعة كيلومترات من مدينة شقراء، وسد على وادي الباطن بمنطقة جلاجل، ويقع على بعد حوالي أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر من مدينة جلاجل، وسد وادي بعيثران في ثادق، ويقع على بعد حوالي كيلومتر ونصف الكيلومتر جنوبي بلدة ثادق، وسدوادي صعب بالطائف ويقع على وادي صعب الذي يلتقي بوادي وج خلف سد عكرمة الموجود حالياً، وسد الحاير على وادي حنيفة بالقرب من بلدة الحاير، وقد اختير موقع هذا السد أمام محطة تنقية مياه الحائر بحوالي أربعة كيلومترات.

وبعد،فان وزارة الزراعة والمياه بالمملكة العربية السعودية تحرص كل الحرص على الاستفادة من جميع الموارد المائية الممثلة في العيون ومياه الأمطار، وتسخير هذه الموارد لتنمية الثروة الزراعية وذلك تمشياً مع أبعاد خطة التنمية الثانية التي بدأت المملكة العربية السعودية في تنفيذها على أسس علمية مدروسة ●

اعداد : يعقوب سلام – هيئة التحرير



سد سيسد في الطائف من السدود الأثرية القديمة بناه عبد الله بن معاوية سنة ٥٨ هـ.

دور الفرد في الجماعة

بقلم: الأستاذ محمد عبد الرحيم عدس

يمر الطفل في علاقاته مع الآخرين خلال حياته بأطوار مختلفة ، فهو في البداية يتمركز حول ذاته ، ويعطي لنفسه أهمية بالغة ، وكأنه مركز العالم من حوله ، ومصدر اهتماماته ويرى نفسه جديراً بأن يقوم الآخرون على خدمته ، فلا يقدر شعورهم ، او يعترف بحقوقهم الا بالقدر الذي يمس ذلك مصالحه الذاتية ، وشعوره الشخصي ، ولذا تراه يضيق بكل ما يقف في وجهه ، او يحول دون رغباته ، أو يعبث بأمنه واستقراره .

وليس بخاف ان من أهم مظاهر النضج الاجتماعي عند الطفل هو باعارته الانتباه للاخرين ، والاهتمام بأمرهم ، وبتقدير حقوقهم ، وبالعمل على تلبية احتياجاتهم ، ثم بالاستعاضة عن تحقيق الرغبات الشخصية بتلك التي تهدف إلى الصالح العام ، وافادة أكبر عدد ممكن من الناس .

وليس الانتماء للجماعة مجرد تنمية علاقات اجتماعية ، أو مجرد مهارة في بناء هذه العلاقات ، وإنما هو فوق ذلك مشاركة مع الجماعة ، وقدرة على القيام بأدوار جديدة ، تمليها على الطفل مركزه في الجماعه ، وقدرته على أن يثبت أهليته لذلك ، بعد أن يخضع للمحك والتجربة ، وقد يضطر إلى القيام بدور بعيد عن رغبته وميوله ، متمشياً في ذلك مع اتجاهات الجماعة وقيمها الجديدة ، وقبوله القيام بمثل هذا الدور هو دليل على أهمية رغبة الجماعة لديه ، واحترامه لارادتهم .

ان الطفل الذي يقدر على العمل مع الآخرين ، وينمي لديه مهارات واتجاهات تحظى بقبولهم هو شخص قادر على التكيف مع محيطه بشكل حسن ، قد عمل على ارساء قواعد متينة تضمن له نجاحاً اجتماعياً في المستقبل اذ يعزى فشل البعض في هذا المضمار إلى عدم اكتساب خبرات اجتماعية ، وإلى عدم ممارسة هذه الخبرات مع آخرين من نفس السن .

وأول ما يجابه المعلم في مدرسته انه يقابل اطفالا من بيوتات مختلفة ، ينتمون إلى طبقات متعددة ، كل منهم كان محور اهتمام خاص من أهله . ومشكلة هؤلاء الاطفال هي أنهم لا يقرون بحقوق الآخرين ، ولا يعترفون ان هناك اطفالاً لهم نفس الأهمية والتقدير ، وأن من الواجب ان تؤخذ رغباتهم مثل غيرهم بعين الاعتبار ، ولو على حساب الرغبة الخاصة في بعض الأحيان ، ولذا كان أول واجب للمعلم ينحصر في تثبيت حقوق الآخرين ، والاعتراف بها بشكل تدريجي ، ينمو ويتعمق مع تقدم الحياة المدرسية وازدياد المهارات والقابليات الاجتماعية أثناء الممارسة العملية ، والتفاعل مع الآخرين ، ويمكن القول بصفة عامة ان الذهاب إلى المدرسة هو أهم تحول اجتماعي يصادفه الطفل ، ويمس جميع جوانب حياته قبل ان يبلغ سن البلوغ ، حيث تأخذ دائرة اتصالاته تتسع شيئاً فشيئاً وبشكل نام ومستمر .

فينشأ لديه عن ذلك تغير سيكولوجي يصحبه اتجاهات وقيم جديدة ليصبح تركيزه على ذاته ، باعتباره فرداً ينتمي إلى جماعة هي الصف ، وليس باعتباره فرداً قائماً بذاته ، وذلك من خلال اشتراكه مع افراد الصف في نشاطات مختلفة ، ضمن فريق اللعب ، أو اللجنة الثقافية ، أو الرياضية ، أو المكتبية أو غيرها من اللجان الأخرى .

وعلى المعلم ، اذا ما رغب أن يكون له تأثير ملموس في عملية التعلم ، ان يقوي من علاقاته الاجتماعية والشخصية مع طلابه ، وان يتبنى اتجاهاتهم في أي تنظيم مدرسي ، وتكمن الصعوبة هنا في الصراع الذي يحيط بالمعلم بين تصوره لطبيعة دور هذا التنظيم وتصور الطلاب انفسهم لمثل هذا الدور .

وكلما كبر الطفل ، وشعر بأن المدرسة تلبي احتياجاته الاجتماعية والسيكولوجية ، ووجد فيها التحدي المعقول لقدراته وقابلياته ، وتقبل الدور الذي تلعبه علاقة المعلم بطلابه وكانت نشاطاته ضمن الحدود التي رسمتها الجماعة ، وجد في المدرسة مصدراً للمتعة والسرور فضلاً عن كونها مصدراً للعلم والتجربة ، وفي هذه الحالة تخف حدة التوتر التي قد تنشأ بين المعلم وبين طلابه ، اذ من السهل أحياناً ان نحدث تغييراً في الفرد من خلال الجماعة نفسها من أن نحدثه من خلال الفرد نفسه .

وكذلك الأب الذي يفرض على أبنائه سلوكاً معيناً ، ولا يتيح لهم بناء علاقات اجتماعية مع الآخرين ، أو حتى مع نفسه . فلا يصطحبهم مثلاً في رحلة أو في عطلة أسبوعية ، ولا يجلس معهم في البيت يتدارس معهم بعض الأمور ، والذي لا يسمح لهم بزيارة احد ، أو باصطحاب صديق إلى البيت والذي يطلب منهم تقديم

كشف بمصروفاتهم ، إنما هو بذلك يفرض على أبنائه قيوداً ثقيلة تجعل نجاحهم في مجتمعهم ضعيفاً ، ويخلق لديهم اتجاهات خاطئة حين يتصرفون مع غيرهم ، بل وحتى مع أنفسهم ويجعلهم اتكاليين يعتمدون على الأبوين في أي تصرف يحاولون القيام به ، فلا يؤدونه الا اذا حظي بموافقتهم المسبقة عليه ، كما يجعلهم محدودي النشاط والمشاركة الايجابية مع الغير ، ومثل هذا الابن يكون جباناً ، غير واثق من نفسه ازاء اي وضع اجتماعي يصادفه ، ويفتقر إلى مبدأ تبادل الخبرات الذي يقول (خذ واعط) كما يفتقر إلى عنصر المنافسة وإلى نظام الجماعة .

أما الطفل الذي يتحمل المسؤولية ، ويعتمد على نفسه ، ويشارك بشكل واسع في النشاطات الاجتماعية والذي أتاح له أبواه الفرص العديدة ليكتسب منها الخبرات الاجتماعية ، ويصبح له اصدقاء عديدون ، فهو طفل تتاح له فرص النجاح في الدراسة بمراحلها المختلفة ، يحبه الجميع ، ويبحثون عنه أينما كان .

والطفل الذي يضطر لدخول تجربة جديدة ، ويصادف اموراً هي بالنسبة اليه سر مغلق ، فانه يتصرف ازاءها بعدم ثقة واطمئنان ، ويفقد الطمأنينة ، ويأخذ في البحث عن الأمان والقدرة على الدفاع ، فلا يجد افضل من أن ينتمي إلى جماعة تماثله في أوضاعه وتوفر له التجربة والخبرة والتدريب الذي هو بحاجة اليه حيث ينسى في هذا الخضم مشاكله وكأن ليس عنده شيء منها ، وفي هذا ما يفسر سبب تعصب الطفل لفريقه ، ومقاومته لأي تدخل من جانب الكبار حفاظاً على كيان الفريق الذي يرى فيه حفاظاً على كيانه ، وفي انتماء الطفل لهذا الفريق ما يوسع علاقاته الاجتماعية ويضعف ارتباطه العاطفي القوي بوالديه لينقله إلى أشخاص آخرين هم أفراد فريقه او جماعته .

وكل منا قادر على ان يقوم بدورين ضمن مجموعته ، أولهما الدور الحقيقي الذي نقوم به وثانيهما تصورنا الخاص لهذا الدور ، فالطبيب الذي يقوم بجولة على مرضاه ، ويستقبلهم في مكتبه ، إنما هو بذلك يقوم بدوره الحقيقي ، إلا أنه قد يتصور نفسه ذلك الفارس الذي يقارع قوى الشر ، والشخص الذي يقدم الخير للبشرية جمعاء وكذلك الحال بالنسبة للطفل ، فقد يرى نفسه يقوم بدور يختلف تماماً عن الدور الحقيقي الذي يقوم به ، فاذا كان الفارق بين الدورين كبيراً ، أصبح ذلك واقعاً سيئاً بالنسبة اليه ، ولجأ إلى أحلام اليقظة التي تجعل من كل الأدوار شيئاً ممكناً ، وكلما فشل في تحقيق رغباته على صعيد الواقع ازداد لجوؤه لم إلى هذه الأحلام وقل نشاطه الجماعي إلى حد كبير .

واحلام اليقظة هذه أمر طبيعي بالنسبة للطفل ، وهي ليست سيئة بالضرورة ، وعلينا ان نتوقعها ، ولكنها حين تأخذ بالتأثير على حياة الانسان إلى حد يتخذ منها ملاذاً يهرب اليه من الحقيقة والواقع ، تصبح حينئذ لها دلالتها الخطيرة في عجز الفرد عن مسايرة المحيد والتكيف معه ، ومع واقع الحياة ، فمن يجد في احلام اليقظة سروراً كبيراً ، لا ينتظر منه ان يجد المتعة حين يتصل بالناس ، وبالحياة الواقعية ، وسيبدي تذمره اذا طلب منه مواجهة مواقف حياتية تتطلب خبرة اجتماعية ، وحتى ولو كان نجاحه فيها ممكناً اذا هو حاول ذلك ، فأحلام اليقظة اسهل منالاً .

ويختلف الأشخاص في قابلياتهم العامة ، وفي قدراتهم الخاصة كذلك ، والدور الذي يمارسه الفرد يعتمد على رغبته هو فيه ، أو على عوامل اخرى تفرض عليه القيام بدور معين ، حتى ولو كان ذلك ضد رغبته الخاصة ، وبعض هذه الأدوار مرغوب فيه ، وبعضها مستهجن ، قد نقوم بها عن طواعية واختيار ، وقد تفرض علينا فرضاً ، وبعضها يتحدد بمواهب الطفل الخاصة أو بفعل الحاجة اليه ، أو بكليهما معاً . ومع هذا فالصورة التي يرسمها الطفل لنفسه نتيجة الدور الذي يقوم به تبدو متغيرة وغير مستقرة ، ولكنها تلبي حاجة معينة عنده ، فهي تبدد القلق ، وتجلب له الأمن ولذا كان من الأهمية بمكان ان نزود الطفل بكل ما من شأنه ان يبعد عنه القلق وذلك بمساعدته على القيام بأدوار يقبلها المجتمع ، ومن الخطأ الفادح ان نشعر الطفل بأنه غير كفء وان نعمد إلى مضايقته بداعي العمر او المكانة او المركز .

وقد نجد صعوبة في تقرير ما يجب علينا قوله او عمله للطفل اذا ما واجهته مشكلة خاصة ، ولكن من المسلم به ان نهيئه سيكولوجياً لما نريد قوله له او عمله ، وان يكون لدينا بمقترحات نزوده بها لمساعدته في التغلب على مشكلته ، او على الأقل نصل معه إلى نقطة يكون هو

قادراً عندها على ما يجلب عليه عمله لما فيه مصلحته ، فلا نتركه وشأنه ، دون اسداء النصح او تقديم البديل او المقترح المقبول للحل ، فكل من يعتقد بقدرة الطفل أن يتغلب على مشاكله وحده هو انسان لا يستند على واقع صلب في رأيه هذا .

ويميل الأطفال دوماً إلى السؤال عن دورهم الاجتماعي ، ويساورهم الشك في امكان الاعتماد عليهم للقيام بدور فعال ، ولا بد لديهم من خبرة سابقة ليكون في الامكان انشاء علاقات مع غيرهم من الأطفال . فالطفل حين يطلب منه أن يقوم بتصرف جديد في موقف معين ، يستحضر في ذهنه ما لديه من خبرات سابقة تساعده على حل مشاكله الجديدة ، ومن ضمنها معرفته بآداب المعاملة والسلوك ، وكفاءته في القيام ببعض النشاطات المعروفة .

وقد دلت الأبحاث على ان كلا من الذكور والاناث له مشاكله الخاصة ، وان كان هناك اتفاق في بعضها فالطفل ينزع إلى التقرب ممن يعتبره مثله الأعلى والذي يكون من الجماعة نفسها ، والا صعب عليه الانسجام مع غيره ، وتصرف بما يصعب تفسيره ، بسبب ارتباط تصرفاته مع بعض مظاهر حياة بطله ومثله الأعلى ، فقد اتفق ان أحد الأطفال كان يرفض خلع لباس رأسه في الأندية والمجتمعات وحتى في البيت رغم الحاح والديه عليه ومعلميه ، ثم تبين فيما بعد انه يقتدي بفعله هذا ببطل رفض في حياته خلع لباس رأسه في الأندية والمجتمعات .

المسلم به ان لكل سن معينة اهتمامات خاصة ، وسلوكاً معيناً ، وان كانت لا تتصف بالعمومية والشمول ، ولا يشترط بالضرورة ان تنتقل من شخص الى آخر ، او أن يهبط هو إلى محيط آخر ، وهكذا كلما اندمج الفرد مع الجماعة وزاد اختلاطه بهم ، ومشاركته في انشطتهم ازداد شعوره بالانتماء اليهم ، واعتزازه بهم وقام هذا الشعور — إلى حد ما — مقام الانتماء للعائلة ، وأهله ذلك إلى الدخول في حياة الكبار والاندماج معهم ، ومن هنا ينشأ سؤال طالما أثار الجدل والمتعة سواء بسواء وهو إلى أي حد تكون الجماعة مفيدة للفرد وإلى أي حد تكون سيئة بالنسبة اليه ؟

هناك اتفاق عام على ان الجماعة تفيد الفرد لأنها توفر له الأمن والطمأنينة ، وتتيح له المجال لاظهار كيانه ، وابراز شعوره بالانتماء اليهم ، والعمل معهم كفريق ثم في المشاركة مع الجماعة في الحياة العامة ، كما تهيء له الفرصة ليعرف شيئاً عن حقوق الآخرين ، كما توفر له ملجأ أميناً يحميه من دنيا الكبار ومن تدخلاتهم والجماعة فضلاً عن ذلك مصدر يستقي منه العلم والمعرفة ، ويستمد منه الخبرة والتجربة ، وهذه امور تهم الآباء والمربين ، وكل من يحاول ان يوجه الأطفال نحو سلوك أفضل .

وعلينا نحن ان لا نقوم بتعليل سلوك أطفالنا من وجهة نظرنا نحن الكبار اذا ما اردنا التأثير على سلوكهم بشكل بناء وفعال ، وإنما علينا ان نأخذ بوجهة نظرهم ونظر من هو في سنهم ، فنحكم على أعمالهم من خلال طريقتم في الاداء ، لا من خلال طريقتنا نحن .

وحتى يتم هذا لا بد من ان يضع المرء منا نفسه موضع طفله ، وهو أمر ليس من السهل على بعضنا ان يقوم به ، وقد عبر بعض الأطفال عن ذلك بقوله : ان زملاءنا يتفهموننا أكثر مما يتفهمنا آباؤنا .

ولعلنا ندرك ان العوامل التي تجعل من الجماعة شيئاً نافعاً للفرد ، قد تسيء أيضاً اليه إذا كانت أهداف الجماعة غير مرغوب فيها ، ولا تلبي احتياجات افرادها ورغباتهم ، ولخطر الأمور جميعاً ، هي النتائج السيكولوجية التي تترك اثرها على الفرد اذا ما طردته الجماعة او اهملته ، أو أسندت اليه دوراً غامضاً ، فقد يتولد عنده شعور بالنقص يؤدي به إلى الانزواء عن الناس رغم ان هناك آخرين يتخذون من فشلهم هذا حافزاً لمضاعفة جهودهم في دنيا الكبار ، وأحياناً ينجحون في ذلك نجاحاً كبيراً .

الختام يجب ان لا يذهب بنا الافتراض إلى أن كل طفل لا ينتمي إلى جماعة معينة هو طفل فاشل ، وانسان منعزل ، فهناك اطفال يحبون العمل الجماعي ، ويقدرون على المشاركة فيه الا ان ظروفهم تمنعهم من تحقيق ذلك ، بسبب وجودهم في مكان معزول ، أو بسبب اضطرارهم للعمل المتواصل بشكل لا يدع لهم مجالاً للاختلاط مع اترابهم ، والتفاعل معهم ، أو بسبب من خجلهم الزائد ، او حساسيتهم المفرطة . وقد يتخذ الطفل من ذلك كله مبرراً لفشله تحقيقاً للمثل الذي يقول : « قال هذا حامض لما رأى الا يناله » ●

محمد عبدالرحيم عدس — الأردن

اخبار الكتب

* أصدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية كتاب « حلقة الترجمة في الوطن العربي » وهو يضم الدراسات والبحوث والمناقشات التي جرت في الكويت باشراف الجامعة العربية بقصد تنسيق حركة ترجمة الكتب في البلاد العربية المختلفة.

وقد تضمن هذا الكتاب دراسات عن الوضع الراهن لحركة الترجمة في الوطن العربي (تونس والجزائر والمملكة العربية السعودية والسودان والعراق والكويت ومصر والمغرب) وبحوثاً عن مشكلات الترجمة وكيفية النهوض بها ، وبيانات احصائية عن حركة الترجمة من اللغة العربية وإليها ، ثم التوصيات التي اتخذتها الحلقة في ختام مناقشاتها .

وأشرف على اعداد هذا الكتاب الأستاذ بدر الدين أبو غازي مدير إدارة الثقافة بالمنظمة العربية (اليونسكو) التابعة للجامعة العربية .

* كذلك صدر عن جامعة الكويت كتاب « أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي » وهو حصيلة ندوة شارك فيها مفكرون من البلدان العربية المختلفة . وقد أشرف على تنضيد مادة هذا الكتاب وإخراجه الدكتور شاكر مصطفى .

* من الدراسات الأدبية التي صدرت أخيراً كتاب « الثقافة والفكر في مواجهة التحدي » للأديب المغربي الأستاذ عبد الكريم غلاب ونشر دار الثقافة بالدار البيضاء و « حواء وأربعة عمالقة » وفيه درست الأديبة صوفي عبد الله موقف طه حسين ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم والعقاد من حواء ، وقد صدر الكتاب عن الهيئة المصرية العامة للكتاب و « دراسات في الأدب الأندلسي » للدكاترة إحسان عباس ووداد القاضي وألبير مطلق ونشر الدار العربية للكتاب .

* من كتب التراث التي صدرت أخيراً « شرح أبيات سيبويه » لابن السيرافي وقد حققه في جزءين كبيرين الدكتور محمد علي هاشم ونشرته مكتبات الكليات الأزهرية ، و « الرسالة الألواحية » للشيخ الرئيس ابن سينا وقد حققها الأستاذ الدكتور محمد سويسي ونشرها مركز الدراسات والأبحاث في تونس ، و « الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية » لعباس بن علي بن أبي عمر الصنعاني وقد حققها عبد المجيد الشرفي ونشرتها الدار العربية للكتاب .

* الأديب العراقي الأستاذ سلمان هادي الطعمة أصدر الجزء الأول من كتاب « مخطوطات كربلاء » وفيه تعريف بطائفة كبيرة من المخطوطات الثمينة المودعة بالمكتبات العامة والخاصة في كربلاء وقد صدر هذا الكتاب عن مطبعة الآداب بالنجف .

* صدرت في القاهرة المحاضرة التي ألقاها الدكتور حسين مجيب المصري في لاهور بدعوة من حكومة باكستان بعنوان « إقبال والعالم العربي » باللغتين العربية والانكليزية وقامت بنشرها مكتبة الانجلو المصرية .

* جمع الأستاذان الجيلاني بلحاج يحيى ومحمد المرزوقي المقطوعة الشهيرة « ياليل الصب » وكل ما قيل من شعر في معارضتها ، وهي ثاني محاولة من هذا النوع ، إذ سبقتها محاولة رائدة من الأديب الراحل محي الدين رضا الذي نشر القصيدة وعشرات من معارضاتها في كتاب نفيس . وقد صدر الكتاب الجديد عن الدار العربية للكتاب .

* مجلة « الشرق » التي كان يصدرها في سان باولو الأستاذ موسى كريم باللغتين العربية والبرتغالية أصدرت آخر أعدادها ، فخصصته لذكرى مؤسسها الذي توفي من عامين ، ثم كفت عن الصدور ، فماتت باحتجابها صوت عربي جهير في المهاجر الأمريكية .

* من كتب السير والتراجم التي صدرت أخيراً « الفارابي في العراق » للأستاذ عبد الحميد العلوجي ونشر وزارة الاعلام العراقية ، و « ابن خلدون وعلوم الاجتماع » للدكتور محمود عبد المولى ونشر الدار العربية للكتاب ، و « المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس » للدكتور محمد التونجي وطبع سورية ، و « الأفغاني فيلسوف الوحدة العربية » للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « أمية ابن أبي الصلت » للأستاذ بهجت عبد الغفور الحديثي ونشر وزارة الإعلام العراقية ، و « شخصيات » وهو تعريف بطائفة من المشتغلين بالفكر والفن للأستاذ محمود عوض ونشر دار المعارف في سلسلة « إقرأ » .

* كتابان علميان عن الكون صدرا أخيراً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب هما « الكون ذرة وحركة » للدكتور سيد رمضان هدارة ، و « قصة الكون عجب وبهاء » لكليفورد سيماك وترجمة الدكتور عبد القوي زكي عياد ومراجعة الدكتور جمال الفندي .

* من كتب الخواطر التي صدرت أخيراً كتاب « مهنتي الابتسامة » للصحفي الأستاذ عبد الله الشيتي ونشر دار القبس بالكويت ، و « كلمات » للأستاذ البشير المجدوب وتقديم الأستاذ محمود المسعدي ونشر الدار العربية للكتاب ، و « على مرمى البصر » للأستاذ يوسف القويري ونشر الدار العربية .

* « تطور الفكر المحاسبي » عنوان كتاب في علم المحاسبة وضعه الدكتور عمر السيد حسنين ونشرته دار الجامعات المصرية .

وللأستاذ موسى حقي كتاب كبير مخطوط عن الاتجاهات الجديدة في المحاسبة .

* « الادارة بالأهداف والنتائج » دراسة للدكتور سيد الهواري نشرتها مكتبة عين شمس

* في الأدب الروائي بفنونه ظهرت الكتب التالية : « حضرة المحترم » رواية للأستاذ نجيب محفوظ أصدرتها وزارة الثقافة السورية ، و « زينه » رواية للأستاذ مهدي النجار صدرت عن مجلة الثقافة العراقية ، و « عندما ينهال المطر » رواية للأديب ابن الواحة نشرتها الدار العربية للكتاب ، و « نهاية الأمس » رواية للأستاذ عبد الحميد بن هدوقة نشر الشركة الوطنية بالجزائر ، و « حكاية الظمأ القديم » رواية للأستاذ جورج سالم نشر اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، و « وفجأة أبدأ بالصراخ » مجموعة أقاصيص للأديبة سهيلة داود سلمان نشر المكتبة العصرية ببيروت ، و « زمن الصمت والضباب » أقاصيص للأستاذ سليمان فياض ونشر دار الآداب ، و « طيور السماء » أقاصيص للأستاذ فهد الأسدي ونشر وزارة الاعلام العراقية ، و « زمن الزخارف » أقاصيص للأستاذ سمير العيادي ونشر الدار العربية للكتاب ، و « أوديب » مسرحية للكاتب اللاتيني سينيكا أعدها للمسرح الانكليزي تد هيوز وترجمها الى العربية الأستاذ يوسف الشاروني وراجعها الأستاذ محمد الحديدي ونشرتها وزارة الاعلام في الكويت .

* من الكتب التي تتناول علوم الصناعة ، صدر أخيراً كتاب « تنظيم وإدارة النقل » للدكتور سعد الدين عشماوي ونشر مكتبة عين شمس ، و « التكنولوجيا والادارة والمجتمع » لبيتر دروكر وترجمة الدكتور صليب بطرس ونشر الهيئة المصرية .

* صدر في بغداد كتاب عن « نشأة الخط العربي وتطوره » للأستاذ محمود شكر الجبوري .

* من الدراسات الاسلامية الجديدة « السرد القصصي في القرآن الكريم » للأستاذ ثروت أباظة ونشر دار نهضة مصر ، و « التجارة في الاسلام » للأستاذ عبد السميع المصري ونشر مكتبة الأنجلو ، و « أعلام الفكر الإسلامي » وهو في خمسة أجزاء من تأليف الأستاذ محمود عبد الوهاب ونشر دار الشعب .

* ومن الدواوين الجديدة التي صدرت أخيراً « جراحات قلب » للأستاذ طارق الطاهري وطبع البصرة ، و « موت بين البحر والصحراء » للأستاذ عبد الخالق الركابي ونشر وزارة الاعلام العراقية ، و « وحرسني الظل » للشاعر الجزائري الأستاذ أزراج عمر ونشر الشركة الوطنية بالجزائر .

* « عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩ – ١٩١٨ » ، عنوان كتاب جديد للدكتور فاروق عثمان أباظة نشرته الهيئة المصرية ●

①

الرّوايــة الانجـليزيّة تـاريخـاً ونقــداً

بقلم
الأستاذ حسين الجيار

كانت الرواية الانجليزية – وما زالت – موضوعاً لكثير من الدراسات النقدية الى حد يجعلنا نحس بأنه لم يعد هناك ما يمكن أن يقال . فقد حدد النقاد خصائصها ، وتتبعوا تطورها ، وناقشوا المؤثرات التي أثرت فيها . واننا مدينون لهؤلاء النقاد من حيث أنهم زادوا من متعتنا في قراءة هذه الروايات . غير أن هناك خطراً كبيراً يحيق بالرواية من وراء هذا كله ، ذلك انه كلما ازداد الحديث عن تلك الروايات ، وتشعبت فيها الآراء ، جعلنا ذلك أقل تلقائية في تناولنا اياها . فبالرغم من أنها توفر مجالا خصباً للدراسة إلا أنها كتبت أول ما كتبت لتكون وسيلة للمتعة والتسلية . وانه ليحزننا أن نتخذ موضوعات لحجرة الدراسة والمحاضرة كتبا قصد بكتابتها أن تكون جزءاً من الحياة . وتمر الأيام ، وتنتهي الحال بروائع الروايات الانجليزية – حتى الكلاسيكية منها – لتتخذ مكاناً لها فوق رفوف المكتبات حيث تلقى عناية لا تزيد عن رفع الغبار الذي يتراكم على أغلفتها بين الفينة والفينة ، بينما كان يجب أن يكون مكانها الحقيقي على منضدة صغيرة بجوار مقعد مريح ، حيث تصبح في متناول يد من يريد الاستمتاع بقراءتها ، وقضاء وقت – قصر أو طال – مع جزء لا يتجزأ من واقع الحياة .

اننا نفقد كثيراً اذا تجاهلنا ، أو اذا كرمنا من ناحية الاسم فقط ، مثل هذا الجانب الحي من التراث الانجليزي . ان ماضي انجلترا في فنها – كما هي الحال من حيث تاريخها – هو الذي ساعد في صنع حاضرها . فمن الطبيعي إذن أن يصبح الانجليز في حاجة الى أن يكون كتّابهم المشهورون بالقرب منهم حين يواجهون هذه الحقبة الجديدة من التجربة البشرية . وان الفنانين والكتاب ، مهما عفا عليهم الزمان وطال عهد فراقهم لهذه الحياة ، سوف يظلون من خلال فنهم الحي معاصرين ، ذلك أن ميدان فنهم دائماً هو ميدان الحياة البشرية . انهم يخاطبوننا نحن الأحياء ، وان ذلك يصدق على كتاب الرواية كما يصدق على الرسامين والشعراء ، غير أن قليلين هم الذين يسلمون بهذه الحقيقة . ولعل لهؤلاء بعض العذر فيما يفهمون ، ذلك لأنه بينما تنتظر من الرسام أو الشاعر أن يسمو بفنه أو بشعره فوق كل حدود ، نتوقع دائماً من كاتب الرواية أن يكون معبراً عن مشاكل عصره المتكررة يوماً بعد يوم . اننا نحس أن الرواية يجب أن تكون على صلة وثيقة بالحياة ، وأن الروائي يجب أن يكون رجل عصره ، وانه ما دام عصره هذا يمهد لعصر يأتي بعده ، وان ذلك يمهد لعصرنا نحن ، أفلا نحس حينئذ أنه يصور ما كان ، الى حد يجعل أحكامه وتقديراته غير مألوفة لدينا الآن ؟ ان القارىء في عصرنا قد يتساءل كيف يمكنه أن يرى المألوف والمقنع والمحتمل في روايات كتبت قبل عصره بقرنين من الزمان .

والجواب عن هذا التساؤل هو أنه بينما يجب أن ينتمي الروائيون الى عصرهم ، فان كبار الروائيين لا تحدهم حدود في الزمان أو المكان . لقد اندثرت روايات هزيلة باندثار العصر الذي كتبت فيه ، ذلك أن كتابها قد شغلوا أنفسهم بالجوانب السطحية من التجربة البشرية ، دون أن يمسوا من قريب أو بعيد أساسياتها الأبدية . أما في روائع الروايات فاننا نجد هذه الأساسيات تشكل الموضوع الرئيسي .

اننا نلمس مدى أبعاد التجربة البشرية دون أي التزام بعصر من العصور . والحقيقة اننا نلمس منذ الوهلة الأولى ماهية تلك الأساسيات ، كما نلمس السبب في أن أشخاص الرواية لا يختلفون من عصر الى عصر إلا قليلا . اننا لن نجد في روائع الروايات التي تتخطى السنين ما يثير الغرابة أو الدهشة . وإذا كان هناك قليل من الاحساس بأن هناك شيئاً غير مألوف ، فسوف يتلاشى ذلك الاحساس بعد قراءة قليل من الصفحات الأولى في الرواية . ان بعض الاختلاف في لغة الحديث أو في الزي أو في العادات أو في السلوك لن يؤثر فينا كما يمكن أن يتطرق الى الذهن . بل على العكس من ذلك فاننا ندفع الى الاحساس بأن الحياة التي عاشتها الرواية حين خرجت الى حيز الوجود لا تختلف أبداً عن الحياة التي نعيشها الآن .

بدأت الرواية الانجليزية ، بمفهومها السليم ، بدأت في عصر الفكر – في عصر كان الناس فيه يفكرون لأنفسهم . ولقد ظل هذا الفكر هو الرائد الملهم للرواية الانجليزية ولكن العبقرية الحقيقية التي منحت الرواية الانجليزية حقيقتها وحياتها هي – في نفس الوقت – قوة تتخطى مجال العقل والفكر . ففي تاريخ الرواية الانجليزية – منذ نشأتها الى يومنا هذا – نرى أن الانجليز لم ينقطعوا عن تصوير أنفسهم ورؤيتها كسكان جزيرة متعالين ، وفي نفس الوقت حائرين . لقد كانت – ولا تزال – مصدراً لتدفق شعور عدد من الانجليز واحساسهم بالحياة ، كما كانت – ولا تزال أيضاً – منطلقاً للنقد الذي يهدف الى اصلاح الحياة .

لقد كانت البدايات الأولى للرواية الانجليزية محاولات هزيلة قام بها جماعة من الكتاب قبل القرن السادس عشر . كانت انجلترا في عهد الملكة اليزابيث تحتاج الى وسائل للتسلية .

واستجابت الفنون الى هذه الحاجة ، وجاءت الدراما أو فن المسرحية ليبلغ الذروة وليجد فيه الانجليز كامل متعتهم ، حيث كانت الغالبية العظمى منهم في ذلك العصر أميين . وكان كتاب المسرحية هم الذين يحتلون المكانة الأولى والكبرى في نفوس وقلوب الانجليز جميعاً . أما من عداهم من الكتاب – الذين طرقوا أبواباً غير باب المسرحية – فقد كانوا يخاطبون طبقة من الناس رفيعة متعلمة ، ومن حاول من هؤلاء الكتاب أن يدخل في مجال القصة فقد كان يفعل ذلك مشاركة أو ممالأة لأذواق رجال البلاط . وأصبحت الطريق عندئذ ممهدة أمام كتاب القصة بظهور الحكايات الايطالية في سماء القصة الانجليزية مع عصر النهضة الذي كان بداية لغزو فكري تبعه غزو آخر جاء الى انجلترا من فرنسا عبر القنال الانجليزي . ثم كانت محاولات بدأها « جون للي – John Lyly » بقصته : « Euphues: Anatomy of Wit » عام ١٥٧٩ ثم اعقبها في العام التالي بقصة : « Euphues and His England » . وكلتا القصتين تحملان آثار عصر النهضة وتتضمنان شطحات في الحوار يعلو كثيراً فوق مستوى الرجل العادي . ولقد لاقت قصتا « Euphues » نجاحاً فورياً في المحيط الذي كتبتا من أجله . غير أنه كان نجاحاً قصيراً ، لأن الوعي الشعبي العام بدأ يثبت وجوده ويؤكد نفسه ، وظهر عدد من المتحمسين الذين أحسوا بأن مثل هاتين القصتين تسخران بعقلية عامة الناس وبكيانهم . فكان ما كان من الاستهزاء بهما واظهار العداء لهما ، حتى عفا عليهما الزمان ، ولم يعد أحد يذكر شيئاً عنهما سوى انهما أضافتا الى الانجليزية عدداً من المفردات .

ثم جاءت محاولة أخرى قام بها «السير فيليب سدني–Sir Philip Sidney» حين كتب قصة « Arcadia » التي ظهرت عام ١٥٩٠ بعد أربع سنوات من وفاته . ولقد صاغها «سدني» في صورة من النظم المنثور بأسلوب يفيض رقة وعذوبة ظل الى عهد طويل بعد وفاته قدوة لكثيرين ممن نهجوا نهجه وكانوا له مقلدين .

ثم كانت محاولة أخرى حين ترك «جون جرين – John Greene » كامبردج وذهب الى لندن ، لا ليشغل بأمور البلاط كما فعل غيره ، ولكن ليكسب قوت يومه من كتابة المقالات والمسرحيات . وكانت تجارته شاقة ورفقاؤه من أحط الطبقات إلا أنه كان واقعياً ، ومن أجل ذلك نبذ في نفسه الأثر الذي كانت قد تركته قصتا « Euphues » حين دفعتاه الى كتابة أولى قصصه : « Mamillia » وقت ان كان لا يزال في كامبردج عام ١٥٨٣ ، وبدأ يتجه اتجاهاً آخر فيه قوة التقدم الى الأمام التي ظهرت فيما كتب بعد ذلك من قصص أدخل فيها عنصر التشويق مع طول مناسب جعلاها تقترب من الروايات القصيرة . وفي تلك القصص خرج على تقاليد المتصلين بالبلاط وأفكارهم ، وأخذ يكتب عن لندن المكشوفة أمامه كما عرفها ، بكل ما فيها من وساخات وروائح قد تزكم كثيراً من الأنوف الرقيقة دون أن يبالي . وتبعه في نفس الطريق « توماس ناش-Thomas Nash » الذي اتخذ بذكائه وعبقريته طريق السخرية والتهجم والتهكم أسلوباً لكتابة قصصه .

وهكذا فان عصر الملكة اليزابيث قد انتهى بظهور اتجاهين متناقضين في كتابة القصة الانجليزية ، ولقد مهد ذلك الطريق على الأقل لحكايات أصبحت أساساً لكتابة الرواية فيما بعد حين ظهرت بعض المحاولات الابتكارية ، وبعض التجارب التي وضعت على طريق الاستقرار .

وخلال القرن السابع عشر حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد جاء برلمان جماعة المتطهرين « Puritans » ، الذين كان لهم نفوذ كبير على أجهزة الحكم في الدولة ، واتخذ قراراً باغلاق المسارح ، وبدأت الدراما عندئذ في الاضمحلال ، كما بدا الناس يفكرون في وسيلة أخرى للتسلية ولشغل أوقات الفراغ . حينئذ أمدتهم القصص الخيالية الرومانسية المستوردة من فرنسا بما كان يلهيهم ويجلب لهم المتعة ، فاعتادوا القراءة ، وأصبحت تلك فرصة سانحة لبعض الكتاب لكتابة ما كان الناس يحتاجون اليه . في هذه الفترة ظهرت قصة : « Pilgrim's Progress » لجون بانيان « John Bunyan » عام ١٦٧٨ وهي من أروع ما كتب من حكايات . ثم جاءت بعدها قصة « Incognita » لكونجريف « Congreve » عام ١٦٩٢ وهي

أيضاً من أروع القصص التي ظهرت في هذا القرن . وكان من الممكن أن يستمر كونجريف في فنه ككاتب قصة غير أن المسرح جذبه بعد انتعاشه ثانية حين ضعف سلطان المتطهرين « Puritans » وعادت الحياة الطبيعية الى انجلترا بعودة الملك تشارلس الثاني الى عرشه مرة أخرى .

وهكذا فان القرن السابع عشر قد أوجد الدولة التي كان عليها بعد ذلك أن تخلق الرواية الانجليزية بكل مفهومها الحديث . ذلك أن الحرب الأهلية التي اشتعلت نيرانها من قبل خلال هذا القرن قد ولدت في نفوس الانجليز نوعاً جديداً من الوعي والشعور بالذات ، وبدأ التفكير الاجتماعي يظهر في حياة الناس ، ثم كان الاهتمام بالعلم الذي صرف الناس عن الانطوائية وولد فيهم الموضوعية وحب الاستطلاع والقدرة على تحليل الأشياء . ثم بدأ الناس يلمسون ما لم يكونوا قد أحسوا به من قبل وهو تعقد النفس الانسانية ، وبالتالي صلة هذه النفس الانسانية بالكون كله . وأهم من كل ذلك فقد ظهرت في المجتمع طبقة جديدة لها قوتها ولها نفوذها ، وهي الطبقة المتوسطة التي كانت تعتمد على نفسها كل الاعتماد . وكانت هذه الطبقة الجديدة تتطلب من الفن شيئاً جديداً ، فاستجاب لها وقدم ما سوف يجعل من الرواية الانجليزية في القرون التالية ركناً أصيلا من أركان الفن ، ودعامة قوية أساسية من دعامات الحياة .

كان القرن الثامن عشر في حقيقة الأمر هو عصر مولد الرواية الانجليزية بكل مفهومها الصحيح . وكان بعض كتاب المقال من أمثال « ستيل و اديسون Steele and Addison » هم اللبنات الأولى لهذا الصرح الضخم والبناء المتين . وقد كانت الفصول التي كان ينشرها هذان الكاتبان الكبيران في مجلتيهما « The Tatler » و « The Spectator » من ١٧٠٩ حتى ١٧١٢ هي التي دفعت عجلة التقدم الى الأمام خطوات نحو الرواية الصحيحة بتركيزها على الاهتمام بالشخصيات وتحليلها ثم ايجاد عنصر التشويق نتيجة لهذا التحليل .

وجاء « دانيل ديفو — Daniel Defoe » ليكتب القصة مؤخراً وان كان قد تناول غيرها كثيراً في مطلع حياته الفنية . ولقد قسا عليه الدهر وعانى في حياته الكثير حتى كاد أن يموت جوعاً هو ومن كان يعولهم ، وأصبح على شفا حفرة من اليأس والانهيار . وهنا تتكشف له مواهبه الفنية في الرواية ، فيعصر خياله الغريب عصراً ويخرج للعالم كله«روبنسون كروزو — Robinson Crusoe » عام ١٧١٩ التي مزج فيها الحركة والحدث بالشخصية مزجاً غريباً لم يسبقه اليه أحد ، وهل هناك أروع في اظهار الشخصية من رواية قصة رجل يعيش وحيداً مع نفسه في جزيرة نائية ؟ ثم جاءت بعد ذلك روايات أخرى لنفس الكاتب مثل — « Moll Flanders » عام ١٧٢١ ، ثم قصة «Colonel Jack » عام ١٧٢٢ ، ثم « Roxana » عام ١٧٢٤ . لقد كان ما كتبه«دانيل ديفو»يبدو حقيقياً . انه هو الذي وضع أمامنا قاعدة هامة تنادي بأن كاتب الرواية يجب أن يكون موضع تصديق . ولقد شاركه في هذا الاتجاه « دين سويفت — Dean Swift » صاحب : « Gulliver's Travels » التي نشرت عام ١٧٢٩ .

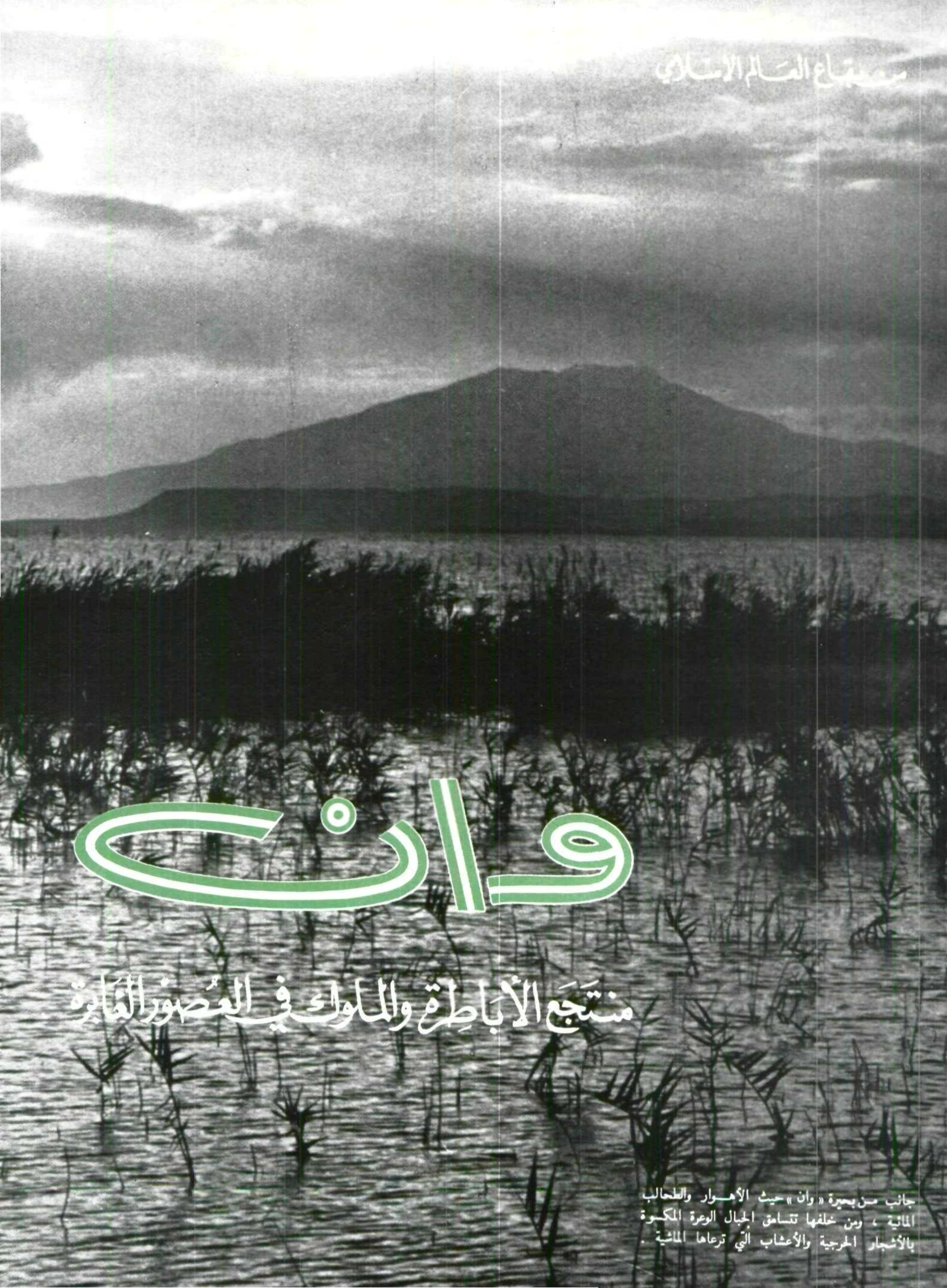
لقد عرف «سويفت» بأسلوبه التهكمي الساخر وبخياله الخصب ، ومع ذلك فقد كان يعالج أدق التفصيلات في حكاياته بطريقة تجبر القارىء على الاقتناع والتصديق . فبالرغم من أن عقل القارىء قد يقول له : « أنت تعرف أن مثل هذا لا يمكن أن يحدث » ، إلا أن الخيال يتدخل ليقول : « ولكنه قد حدث فعلا . اننا نرى وبناء على ذلك نصدق ونقتنع » .

لقد كان« ديفو »و «سويفت » في حقيقة الأمر هما اللذان وضعا اللبنة الأولى في صرح الرواية الانجليزية ، واليهما يرجع الفضل في أنها بدأت بدايتها السليمة القوية . لقد انتهت بظهورها المحاولات الهزيلة السابقة ، وبدأت الرواية الصحيحة تشق طريقها القوية عندما بدأت تستحوذ على القوى المدركة الواعية عند القراء .

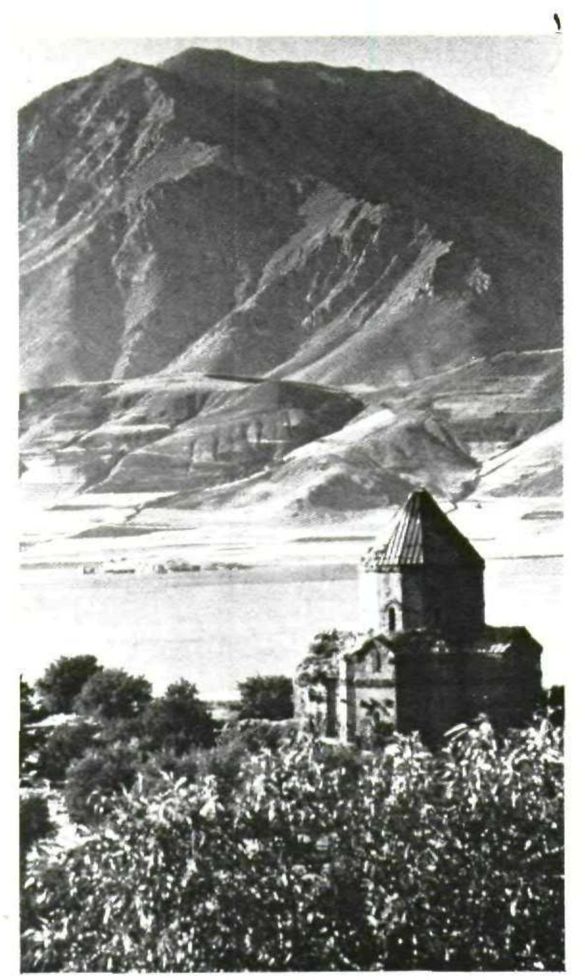
وهكذا كان هناك عنصران ينتظران الرواية وهما الشخصيات الحية المقنعة ، والقصة الحية المحتملة . غير أن هناك عنصراً ثالثاً كانت الرواية في أمس الحاجة اليه ليربط العنصرين المشار اليهما . كان ذلك العنصر الثالث هو الاهتمام بالعلاقات الانسانية حيث يلتقي الرجال بالرجال أو الرجال بالنساء ، حين يتفاعل بعضهم مع البعض الآخر مؤثراً فيه ومتأثراً به ، وحين يتصارع الناس ويناضل الواحد منهم الآخر من أجل الحياة . ولقد كان من المقبول عقلا أن شخصية الانسان تخضع دائماً للظروف والأحـداث . واذن فطبيعة هـذه الظروف وأحداثها التي تحـدد السلوك هي التي يمكن أن نتخذ منها مادة للرواية .

وكان على الروائي أن يتقبل حقيقة يعرفها قراؤه وهي أن السلوك الانساني ، مهما تشعبت اتجاهاته ، نادراً ما يخضع لقيود محددة . ومن الذي يفرض هذه القيود ويحددها ؟ انه المجتمع ، عالم الآخرين حيث يجد كل امرىء نفسه بحكم مولده متخذاً له فيه مكاناً موروثاً . ان علاقة الفرد بالمجتمع هي جزء لا يتجزأ من فكرة أية رواية . ولقد تبلورت فكرة المجتمع في القرن الثامن عشر ، وأصبحت الرواية الانجليزية بحق نتاجاً لعصر اجتماعي كبير كانت علاقة الفرد فيه بالمجتمع تعد أهم عـلاقاته كانسان : فلقد كان في مقدوره أن يتهرب من المجتمع أو يتحداه بأن يكون ناسكاً أو شريراً ، ولكن لم يكن في مقدوره اطلاقاً أن يتجاهله ، لأن مجرد وجود المجتمع هو الذي يعطيه وجوده : معنى وشكلا . وأصبح من الواضح أن يزداد الاهتمام بحقيقة كبيرة مؤداها أن الانسان لا يعيش لنفسه فقط . انه ليس وحيداً في فراغ . ولم يكن هذا الاهتمام التأملي يرتفع الى مستوى الشعر ، فلقد كان دور التسامي فيه ضئيلا ولكن وسيلة التعبير عنه كانت هي الرواية النثرية . ولما كانت انجلترا حينئذ قد تهيأت لاستقبال الرواية بكل معانيها ، فقد جاءتها الرواية ووقـف الناس جميعاً ليستقبلوا « Pamela » التي خرجت الى حيز الوجود عام ١٧٤٠ ●

حسين الجيار — جامعة الملك عبد العزيز



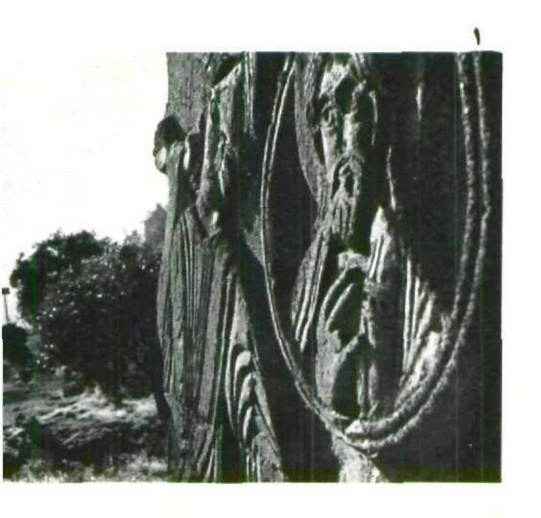
جانب من بحيرة « وان » حيث الأهوار والطحالب المائية ، ومن خلفها تتسامق الجبال الوعرة المكسوة بالأشجار الحرجية والأعشاب التي ترعاها الماشية .



في أقصى الطّرف الجنوبي الشرقي من تركيا وفي بقعة متاخمة للحدود الايرانيّة والعراقيّة تقع بحيرة من أكبر بحيرات الشرق الأوسط وأجملها، تحيط بها جبال شاهقة تكلل هاماتها الثلوج في فصل الشتاء، ومع إطلالة الربيع تداعب أشعة الشمس الدافئة تلك الثلوج فتنساب المياه الرقراقة في الجداول لتصب في البحيرة البلوريّة. في هذه البقعة النائية يعيش المرء في أحضان الطبيعة البكر التي لم تشوه وجهها الفاتن أوضار العصر، ويعيش فيها مع أحداث الأمم الغابرة والحضارات القديمة الزاهية التي تركت بصماتها على أرضها وصخورها، تلك هي بحيرة «وان» التي تكاد شهرتها التاريخية تطغى على واقعها الحاضر.

٢

١ – كنيسة «اكتامار» الارمينية القائمة على جزيرة اكتامار من المعالم الأثرية الجديرة بالمشاهدة لما تحتويه من منحوتات بديعة ونقوش مجسمة وتابلوهات حية.
٢ – تحيط الجبال الشامخة ببحيرة «وان» البلورية إحاطة السوار بالمعصم.





وَصْف أواخر عام ١٩٧١ احتفلت ايران وتركيا بتدشين خط حديدي يربط بين قارتي أوروبا وآسيا . ولعل اختيار ايران وتركيا « بحيرة وان — Van Golu » مكاناً للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة كان موفقاً الى أبعد الحدود ، لأنها تمثل البوتقة التي انصهرت فيها الحضارات القديمة الزاهرة ، والحديثة المتطورة ، من حورية ، واورارتية ، وحيثية ، وآشورية ، وفارسية ، وميدية ، وأرمينية ، واغريقية ، ومغولية إلى اسلامية عربية ، وكردية ، وتركية . ومع أن اقليم بحيرة « وان » يعتبر من أجمل بقاع العالم ، إلا أن هذه البقعة تعيش في شبه عزلة في منأى عن النشاط السياحي العالمي ، مرد ذلك الى وعورة المسالك اليها من جهة ، وجهل الناس بتاريخها من ناحية أخرى . وقد تنبهت الحكومة التركية الى أهمية هذه المنطقة العريقة فشقت الطرق اليها . فهناك طريق يمتد من مدينة « ارزوروم » في الشمال ماراً بمدينة « أغرى » (كاراكوز) ومدينة « ارسيش » الواقعة على الضفة الشمالية لبحيرة وان ، ومنها الى مدينة « وان » عاصمة اقليم بحيرة وان . ويبلغ طول هذا الطريق ٣٢٦ كيلومتراً . كما يمتد طريق آخر من مدينة « العزيق — Elazig » طوله ٣٢٤ كيلومتراً ، وهو طريق متعرج يخترق حوض نهر الفرات الأعلى ، ثم يأخذ الطريق بالارتفاع التدريجي في منطقة جبلية تغطيها غابات البلوط ، ماراً بمدينة « قبقشور » و « موش » التي تمتد أمامها الأهوار والمستنقعات حتى مدينة « نق أشكليسي » على الشاطىء الغربي لبحيرة وان ، ومنها الى مدينة وان . وهناك طريق ثالث يمتد من مدينة « ديار بكر » ويتجه شرقاً شمالاً مخترقاً منطقة جبلية ذات صخور بازلتية ، تفضي الى وادي « بيتلس » الذي ينتصب خلفه جبل شاهق ذو صخور كلسية ، يخترقه نفق حفر تحت نفق قديم كانت تسلكه القوافل التجارية في الأزمان الغابرة ويطلق عليه اسم نفق سميراميس ، نسبة الى الملكة الأشورية المشهورة « سميراميس » . ويلتقي هذا الطريق بعد مدينة « بيتلس » بالطريق الممتد من « العزيق » في مدينة « تاتوان » حيث يتجه الى مدينة وان ، ويبلغ طوله ٢٦٦ كيلومتراً .

أما بحيرة « وان » فهي مستطيلة الشكل تقريباً ، إذ يبلغ طولها من الشرق الى الغرب نحو ٨٨ كيلومتراً ، وعرضها ٦٤ كيلومتراً ، وترتفع عن مستوى سطح البحر نحو ١٧٢٥ متراً وتغطي مساحة تبلغ نحواً من ١٤٢٠ ميلاً مربعاً . ونظراً لارتفاعها وسعة مساحتها فانها تتمتع بمناخ معتدل صحي لطيف في الصيف ، أما شتاؤها فهو بارد جداً ، إذ تسقط الثلوج على الجبال المحيطة بها في الفترة ما بين ديسمبر ومارس . والبحيرة صالحة للملاحة منذ أقدم العصور إلا في فصل الشتاء عندما تجتاحها العواصف الهوجاء الباردة . ففي شهور الصيف المعتدلة تجوب الزوارق الفارهة صفحة البحيرة المرصعة ضفافها بالمدن والقرى والى جزيرة « اكتامار — Aktamar » الواقعة في الركن الجنوبي الشرقي من البحيرة على بعد أربعة كيلومترات من مدينة وان . وعلى هذه الجزيرة تقوم معالم أثرية ذات صلة وثيقة بالامبراطوريات القديمة التي اتخذت من اقليم بحيرة « وان » منتجعاً لها ، ومحطة انطلاق تتفيأ ظلالها الوارفة الى حين .

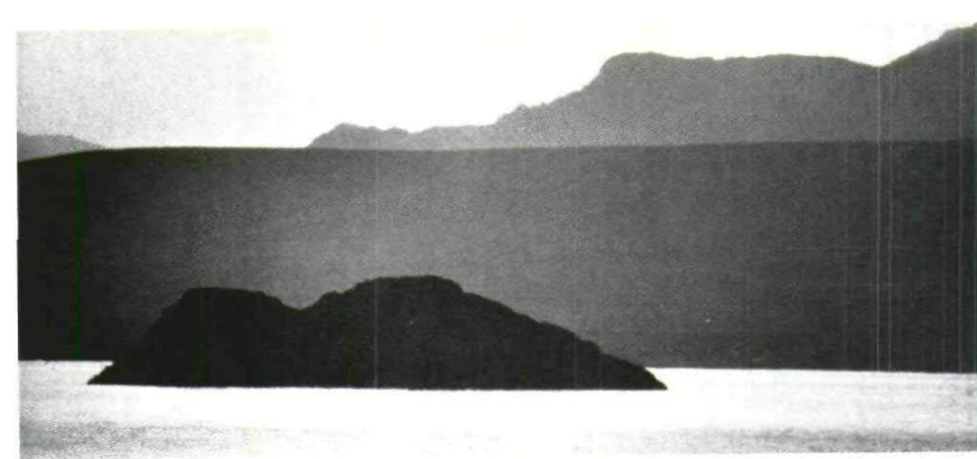
وَمِيَاه بحيرة وان مرة المذاق غير صالحة للشرب ، فمحتواها من الأملاح المعدنية عال جداً لدرجة لا تسمح لأشكال الحياة العليا بأن تعيش فيها ، ومع ذلك تكثر عند مصبات الأنهار والجداول وفي الأهوار أسماك الرنكة الصغيرة في فصلي الربيع والصيف ، ويسمونها « الدارخ » حيث يصيدونها بالشباك التي يطرحونها في الماء من قوارب الصيد الصغيرة . وأهم الأملاح التي تحتويها مياه البحيرة هي كاربونات الصودا وسلفات الصودا والبوراكس . ويعمد أهالي المنطقة الى تبخير مياه البحيرة في جفان مسطحة للحصول على الأملاح وتعبئتها في أكياس صغيرة وبيعها كمساحيق للتنظيف والغسيل . أما مياه الشرب فمتوفرة في العيون العذبة على الساحل وفي الجبال المحيطة بها .

وتمتاز منطقة بحيرة وان بموقع استراتيجي يشرف على طرق القوافل التجارية القديمة ، وقد جلب لها ذلك الموقع الفريد الويلات والكوارث ، إذ كانت أرضها مسرح حرب لجيوش الامبراطوريات القديمة . فمن الشمال الغربي يحف بها خط رفيع من البراكين الخامدة في جبال « نمروت » و « صوفان » التي تنحدر سفوحها الشمالية برفق الى حوض الفرات الأعلى حيث السهول الفسيحة التي تزرع حبوباً ، ومن ورائها يقف شامخاً جبل « ارارات » الذي استقرت على قمته الشماء ، البالغ ارتفاعها نحو ٥٦٥٠ متراً والمكللة بالثلوج ، سفينة نوح ، عليه السلام ، عقب الطوفان ، بناء على اخبار

١ – جانب من الزخارف التي تزدان بها جدران كنيسة اكتامار .

٢ – العزلة التي تتمتع بها بحيرة « وان » الواقعة في أقصى الطرف الشرقي من تركيا ، تضفي عليها مسحة من الجمال الأخاذ .

٣ – تزخر منطقة بحيرة «وان» بالمعالم الأثرية الرائعة ، وهذه قلعة « حوصاب » المطلة على طريق القوافل التجارية المتجهة الى بلاد مابين النهرين .



٣


١
٢
٣

١ – كانت هذه التلال والأودية مسرحاً لجيوش الامبراطوريات القديمة .

٢ – التباين في التضاريس الطبيعيــة في اقليم بحيرة «وان» يكسبها جمالا رائعاً .

٣ – سهل « وان » الممتد الى الشرق من المدينة يعتبر من أخصب بقاع العالم حيث الجداول الرقراقة والتربة الغنية والبساتين الممرعة .

٤ – على رعن صخري يرتفع عن مستوى سطح البحيرة ٣٦٠ قدماً تقوم قلعة « وان » التي يرجع تاريخها الى العصر الأورارتي (١٣٠٠ – ٨٠٠ ق . م) .

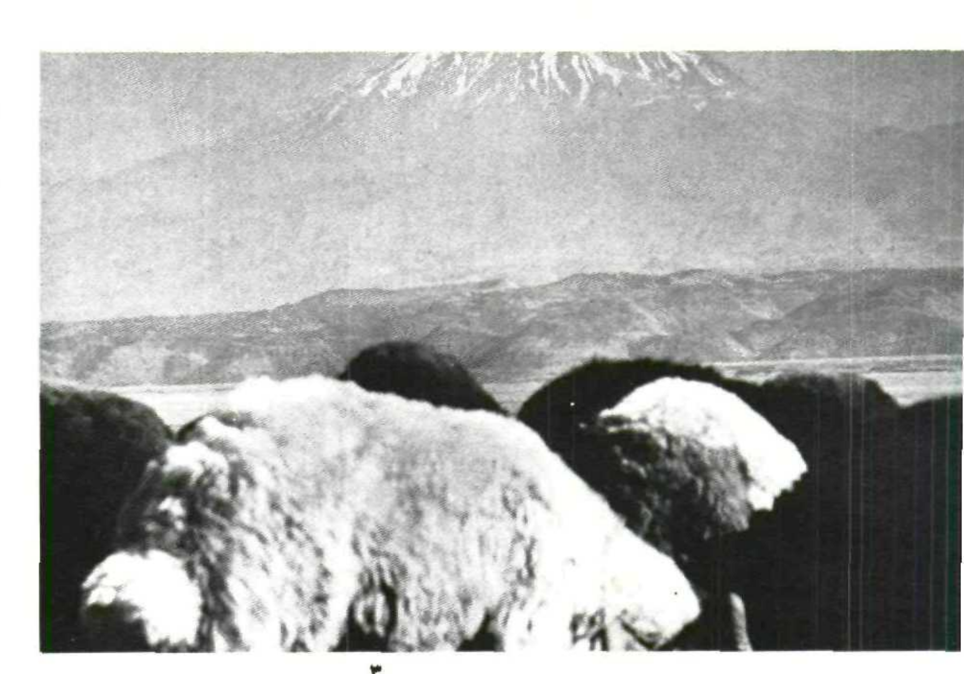



رغم وعورة المسالك الى منطقة بحيرة «وان» فان الحكومة التركية قد شقت الطرق اليها .

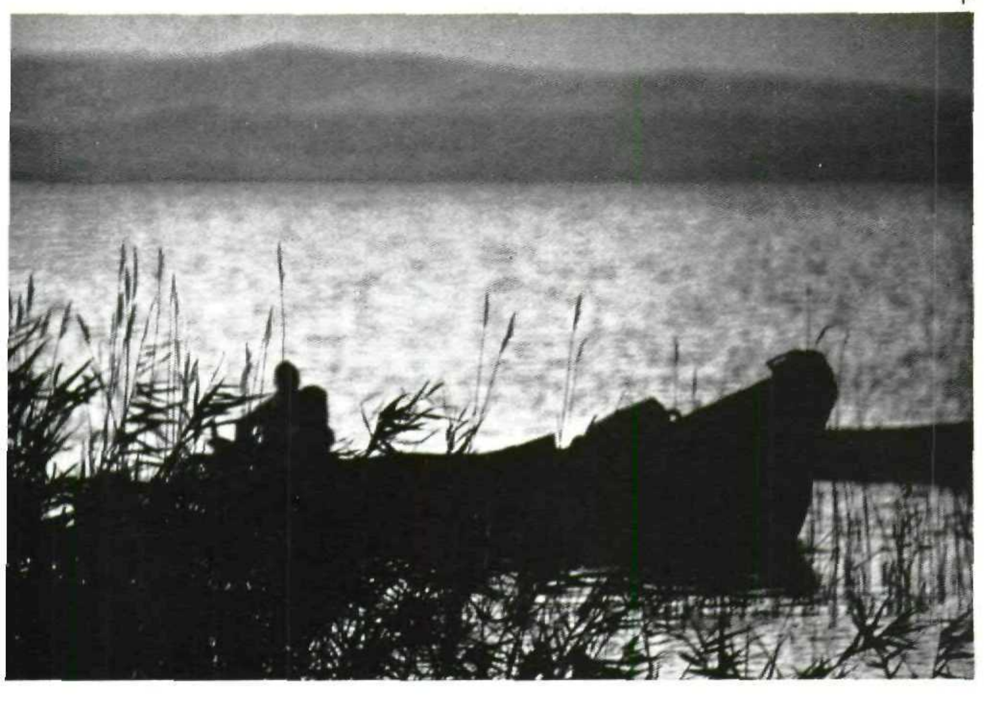
١ – ضأن أنقرة المشهور بصوفه الناعم الطويل يرعى في سفوح جبل « ارارات » الذي يبعد عن بحيرة وان نحو ٧٠ كيلومتراً ، وترتفع قمته المغطاة بالثلوج ١٦٩٤٦ قدماً .

٢ – الأعشاب الطويلة والزهور ذات الأريج العبق تغطي التلال والسهول .

٣ – رغم قلوية مياه البحيرة تعيش فيها أسماك الرنكة الصغيرة التي يصطادها الصيادون بالشباك من قواربهم .



٣



التوراة في سفر التكوين . بيد أن المكان الذي استقرت عليه فلك نوح ، عليه السلام ، لا يزال موضع خلاف بين المؤرخين والمفسرين ، ففي ملحمة « جلجاميش » البابلية عن قصة الطوفان تشير الى جبل « ينصير » .أما في القرآن الكريم فقد ورد ذكر اسم المكان الذي استوت عليه الفلك في الآية الكريمة « **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين** » والجودي ، كما يحدد موقعه الدكتور محمد بيومي مهران ، أستاذ التاريخ القديم في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، هو جبل يقع شرق جزيرة ابن عمر الى جانب دجلة عند الموصل . والدكتور مهران أورد ذلك الموقع ضمن دراسة تحليلية حول « قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة » . ومهما يكن من أمر موقع المكان الذي استقرت عليه سفينة نوح ، عليه السلام ، فان مجرد استئثار اقليم بحيرة وان باهتمام المؤرخين وعلماء الآثار من هذه الناحية يضفي على هذه البقعة أهمية خاصة .

وتحيط باقليم وان من الجنوب سلسلة جبال طوروس الشديدة الانحدار والتي تخترقها أودية عميقة تجري فيها روافد نهر دجلة والزاب الأعلى الى سهوب العراق . أما من الشرق فتنتصب جبال «فارك» الوعرة . ومن هذه الجبال تمتد قنوات الري تحت الأرض ومنها « قناة سميراميس – Semiramis Su » التي تروي السهل الفسيح الواقع بين مدينة وان وسلسلة جبال «فارك» وعرضه نحو ١٢ كيلومتراً ، ويمتاز بتربته الرسوبية الغنية الحصبة ، ولذا تكثر فيه البساتين النضرة والحدائق اليانعة ذات الثمار الشهية المتعددة الأشكال والألوان ، وللمكانة الرفيعة التي تتمتع بها هذه البقعة الجميلة في قلوب قاطنيها فانهم يقولون « وان هي جنة الدنيا » .

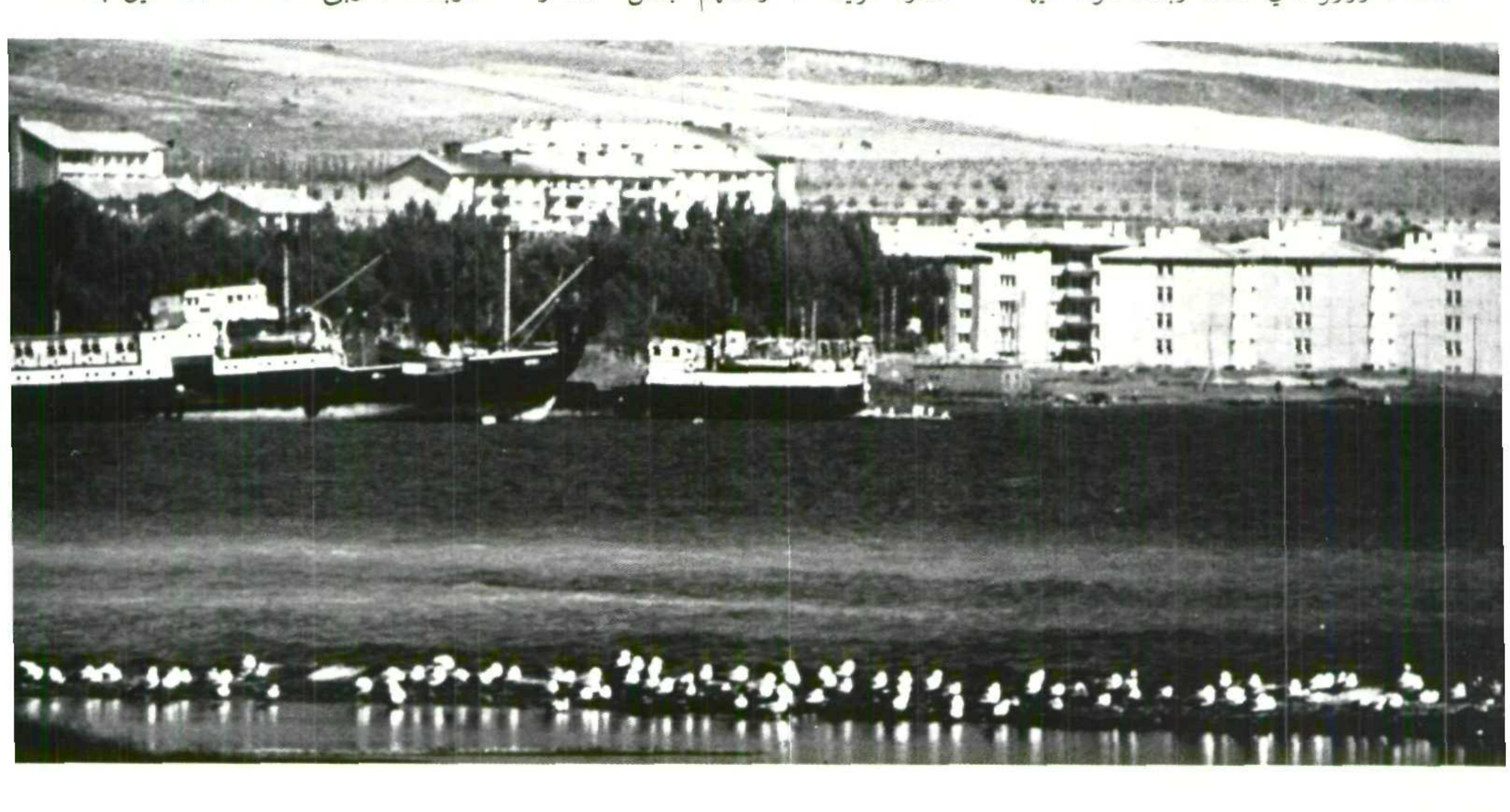
ونحن اذا ما توغلنا في أعماق التاريخ فاننا نجد ما يؤيد قول أهل مدينة وان ، فهذه « سميراميس » ملكة آشور وبابل الاسطورية التي فاقت الملك نينوس زوجها

بشجاعتها وعزتها ، أعجبت بهذه البقعة أيما اعجاب ، فأمرت أن يشاد لها قصر فخم على شاطىء البحيرة ، لتصطاف فيه تخلصاً من حر « ميسوبوتاميا » الشديد في الصيف . وسخرت لبناء القصر نحو ثلاثين ألفاً من أمهر الصناع في نينوى ، عاصمة آشور ، فجاء القصر تحفة رائعة ، حتى لقد عده المؤرخون أعجوبة من عجائب العالم الأشوري بحديقته الوارفة ذات الألف نافورة . كما لجأ الى اقليم وان أبناء سنحاريب الملك الأشوري .

ومن الناحية التاريخية فقد استضاف هذا الاقليم على كره منه حضارات عديدة تركت بصماتها واضحة على أرضه ، وتعرض أحياناً خلال حلها وترحالها الى الدمار والتشتت . فهذا الملك الأشوري « تغلث بلاسر الثالث — Tiglath Pileser » استطاع أن يقضي على مملكة « اورارتو » في المنطقة وبسط نفوذه عليها وتدمير حضارتها التي دامت نحو خمسة قرون (١٣٠٠ — ٨٠٠ق.م) . وقد وصف الأشوريون بالفظاظة والقسوة وخاصة مع الممالك المغلوبة ، فما كان من ذلك الملك الأشوري إلا أن أحال كل أهالي المنطقة الى رقيق ، وقبض على زعماء القبائل ووضع في أنوفهم الأحلاق وساقهم أمامه الى بلاده سوق الثيران ، الى الأسواق . ويصف « سرجون الثاني » الملك الأشوري في أحد النقوش التي عثر عليها زحفه على تلك المنطقة عبر الجبال الوعرة السامقة ، وكيف عصف بمملكة «اورارتو» كما تعصف أسراب الجراد بالمزروعات.

أما اقدم الأقوام التي استوطنت هذه البقعة فهم « الحوريون » الذين يعود تاريخهم الى عام ١٥٠٠ ق.م ، وهم قوم غزاة وفدوا من سوريا واستقروا فترة في أرض فلسطين في عهد ابراهيم ، عليه السلام ، وقوضوا أركان الدولة البابلية ذات الحضارة الرفيعة . وتصفهم بعض المصادر التاريخية بأنهم كانوا طوائف من الهمج البرابرة ، وقد قضى عليهم الملك الحيثي « سوبليوليوماس » ودحر مملكة « ميتاني » التي كانوا يقطنونها ، ثم اتجه نحو سوريا وأخضعها بأسرها . والحيثيون تفوقوا على غيرهم من الممالك القديمة في تشكيل النقوش البارزة المجسمة وصناعة الأختام ، وقد اكتشف بعضها في عاصمتهم « حتوساس » على مقربة من مدينة « بوغازكوي » في هضبة الأناضول العليا ، كما عثر على كثير من تلك النقوش في اقليم بحيرة وان .

ثم قامت في منطقة البحيرة مملكة « اورارتو » التي عرف أهلها بمهارتهم الفائقة في التعدين والري ، وقد امتد نفوذ ملكهم « ساردر الأول — Sardur I » من مدينة « سيفاس » في وسط هضبة الأناضول غرباً الى بحيرة « أرميا » في ايران شرقاً ، حتى أطلق على نفسه « ملك الأركان الأربعة » . وبنى لنفسه عاصمة تليق بمقامه



« تاتوان » قرية وادعة في أحضان البحيرة الجميلة ، وتبدو على صفحتها الهادئة زوارق النقل الأنيقة وأسراب الطيور المائية.

تتداخل البساتين ورقعة مياه البحيرة على نسق يوحي بالبهجة والسرور .

في « طوبراكل » التي لا تزال أطلالها قائمة على بعد ٥ كيلومترات الى الشرق من مدينة وان الحديثة ، وقد دمرها الملك الأشوري « شلمناصر– Salmanazar » في عام ٨٥٧ ق.م. وجدير بالذكر أنه في عام ١٨٥٠م أجريت حفريات فيها عثر خلالها على عدد كبير من الدروع البرونزية المزخرفة بأشكال متعددة للحيوانات ، والأختام الاسطوانية المصنوعة من الحجارة الكريمة والحلي المصنوعة من الذهب والفضة والأواني الخزفية البديعة الدقيقة الصنع ، الى جانب الكثير من النقوش الاسفينية المنحوتة على الصخور العمودية الملساء ، وكلها تشهد بما بلغه الحرفيون والفنانون الاورارتيون من مهارة ودقة في هذا المضمار . ويمكن مشاهدة الكثير من مخلفات الاورارتيين في متحف الآثار في أنقرة .

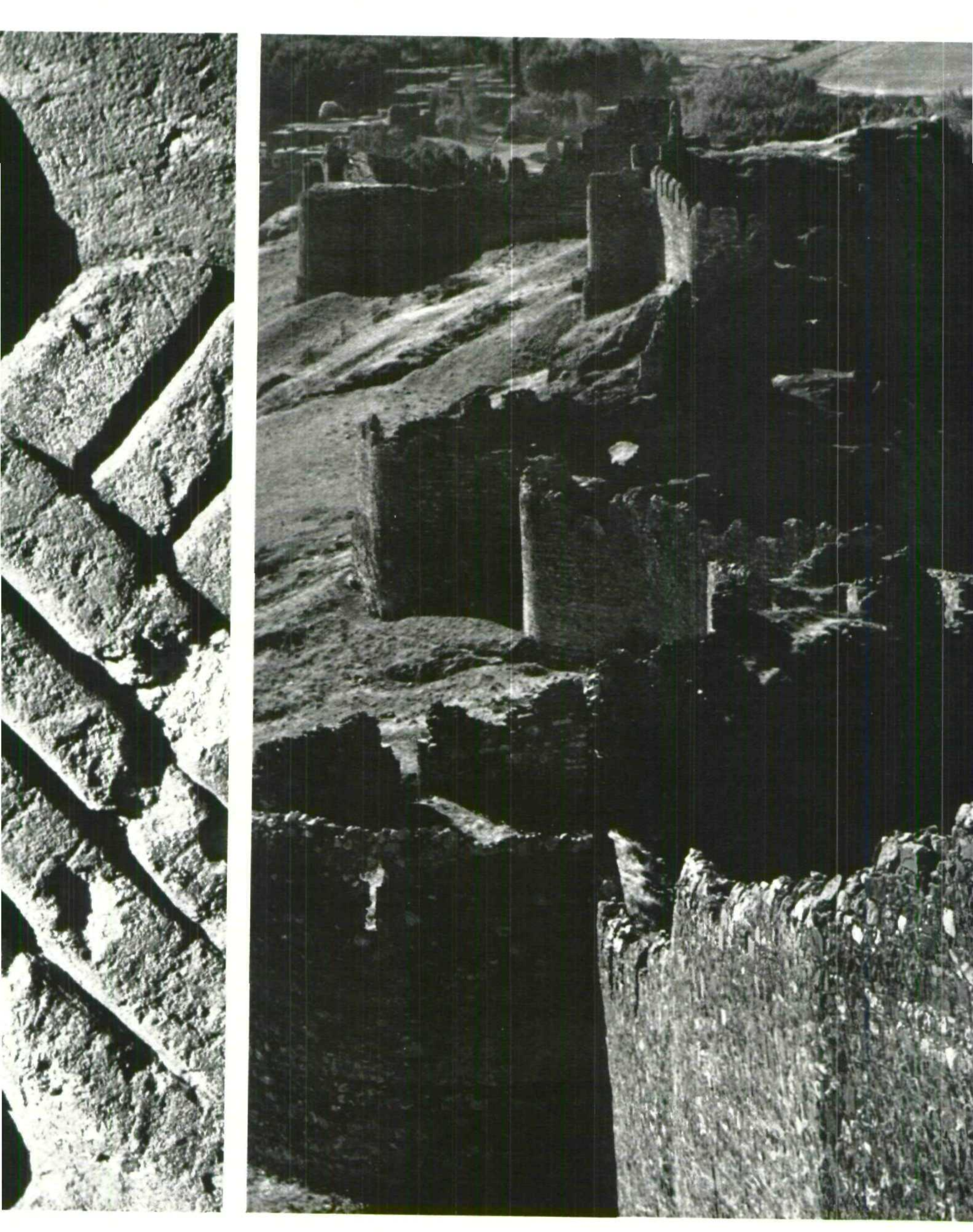
ولم يلبث أن شيد الاورارتيون عاصمة جديدة لهم باسم « طوشبا – Tushpa »



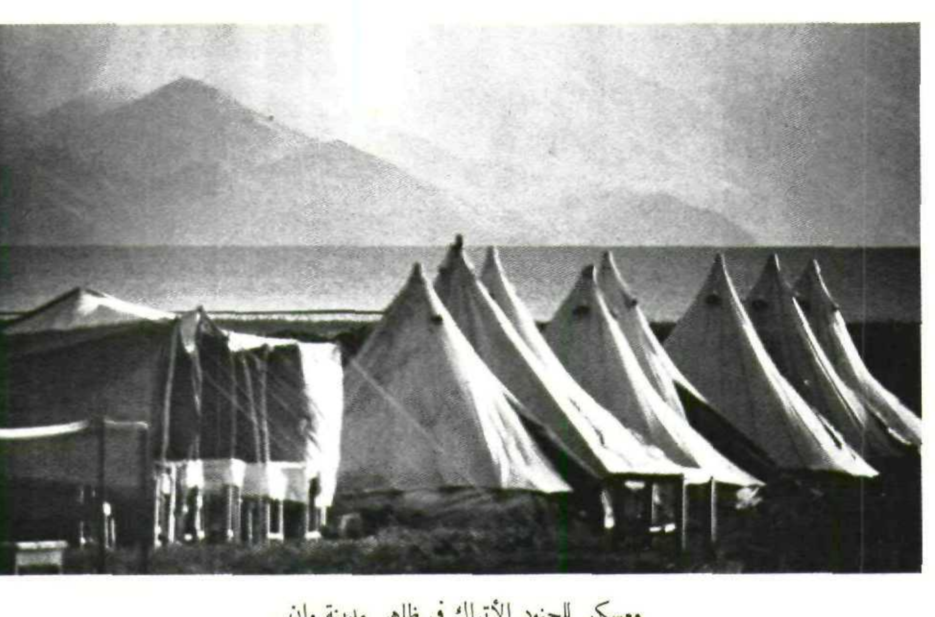
سنابل القمح تغطي جانباً كبيراً من سهل « وان » .



كلما جنحت ذكاء الى المغيب ، أو برزت من خدرها ألقت على مدينة وان وقلعتها وشاحاً من تبر



القلاع الضخمة في « وان » تحكي أسوارها المنيعة للمشاهد أخبار الأمم الغابرة التي تعاقبت على أرضها .



معسكر للجنود الأتراك في ظاهر مدينة وان .

واختاروا الجرف الصخري الشاهق المحاذي للبحيرة من الشرق مكاناً لها ، وهو جرف يرتفع عن مستوى سطح البحيرة نحو ١١٠ أمتار ، وقد أكسبها ذلك الموقع حصانة ومنعة أمام هجمات الأشوريين المتكررة . ولا تزال القلعة الحصينة ماثلة للعيان على مقربة من مدينة وان الحديثة ، بيد أنها وقعت في أيدي الميديين في مطلع القرن السادس قبل الميلاد ، وأدى ذلك الى افول نجم الحضارة الاورارتية . وفي القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت المنطقة جزءاً من الامبراطورية الفارسية ، يدل على ذلك نقش بالحروف الاسفينية حفر بأمر الملك « أحشويرش Xerxes » على صخرة شاهقة تشهد على فتح المنطقة ، ثم جاء الارمينيون فأسسوا مملكة أرمينيا القديمة وبنوا عاصمتهم على أنقاض العاصمة الاورارتية وأطلقوا عليها اسم « وان » نسبة الى الأمير الأرميني « وان » . وبلغت هذه الدولة ذروة مجدها وازدهارها في عهد ملكها « تغرانيس الأول » الذي وسع نفوذه حتى شمل سوريا . وبعد انتشار الدعوة الاسلامية خضعت أرمينيا للحكم الاسلامي في عهد الأمويين والعباسيين . ففي عام ٦٥٣م عقد أمراء أرمينيا معاهدة مع الخليفة معاوية بن أبي سفيان تم بموجبها اعترافهم بسيادة الخلافة الاسلامية عليها . وفي أواخر العصر العباسي قوي شأن أرمينيا إذ قام الأمير « كاجيك » بتتويج نفسه ملكاً على مقاطعة « وان » في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله . ولم تسلم هذه المقاطعة من غزوات السلاجقة المتلاحقة الذين اجتاحوا أرمينيا كلها الى آسيا الصغرى ، ثم تبعهم المغول في عام ١٢٤٠م فعصفوا بها وشردوا أهلها وتبعهم تيمور لنك فدمر مدينة وان في عام ١٣٨٧م . ومنذ ذلك الحين استمرت المنطقة في التدهور الى أن أصبحت جزءاً من الامبراطورية العثمانية في عام ١٥٣٤م .

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ، نشأت مدينة وان الجديدة الى الشرق من مدينة وان القديمة ، وأخذت تنمو شيئاً فشيئاً وراحت تنعم بالهدوء بعد تاريخ حافل بالويلات والدمار . ويعيش في مدينة وان نحو ثلاثين ألفا من السكان يشتغل معظمهم في الزراعة وصيد الأسماك ، فسوق المدينة يزخر بالفاكهة والحبوب والخضار . ويشتغل بعض أبناء المدينة بالتجارة وخاصة تجارة الجلود والفراء وأشهره فراء قط وان الناعم الأبيض . وفي البحيرة تعيش طيور مائية متنوعة ، كالبجع والنورس ومالك الحزين ، أما المعالم الأثرية في وان وضواحيها فهي كثيرة ، فهناك قلعة وان ومعبد « اكتامار » الذي تزدان جدرانه بالزخارف والنقوش النافرة ، وهي تعكس بوضوح تام التأثر بالفن العربي الاسلامي المعاصر . هذا الى جانب العديد من الأديرة والمدافن وأطلال القصور . ويضم متحف وان الصغير القائم خلف فندق « شهر » الأواني المصنوعة من الخزف الأسود ، والمدى الحجرية المصنوعة من السبج وهو زجاج بركاني أسود اللون ، والمنحوتات البديعة الأشكال ، والنقوش التي تعود الى العصر الأورارتي وغيرها .

وهكذا تعود مدينة وان الجديدة الى الحياة النشطة لتلتقي مع التاريخ في صفحة جديدة تتحدث عن تطورها وازدهارها وطبيعتها الخلابة ●

سليمان نصرالله — هيئة التحرير

بعض المنحوتات القديمة في كنيسة اكتامار .

بيضاء !!!

للشاعر: خليل هنداوي

لم يبق غيرك يا بيضاء في الدار ... أين الأحبة ؟ كانوا ملء أنظاري
اني لأفتح عيني ههنا وهنا ... فأين ، أين أصيحابي وسماري ؟
كأنهم غرباء في منازلنا ... فلا يبيتون إلا رهن أسفار
أتسرحين ، وتختالين بعدهم ؟ ... أما رثيت لفقد الألف والجار ؟
لو كان حالك حالي ذبت من وله ... ويتّم الحَزن أوتاري وأشعاري

° ° °

كانوا ، إذا اجتمعوا هروا على قصع ... من الطعام ، بأنيابٍ وأظفار
حتى إذا شبعوا نامت عداوتهم ... مستسلمين ، ومدّوا العنق للنار
من كل لون على لون يعانقه ... ومبسم كأقاحي الروض ، معطار
تطوف ، حتى تراها ، وهي سارحة ... اضمامة من رياحين وأزهار
هذا يمدّ ذراعيه الى عنقي ... وذاك يلحظ لحظ العاتب الزاري
وتلك تلبد في جفني متمتمة ... يا للسعادة ! تغفو تحت أبصاري ! !

° ° °

يا للعيون التي اخضرت نواظرها ! ... عميقة بروى ، حبلى بأسرار
هل الصفاء على أشفارها ألق ؟ ... أم الخيانة رفّت بين أشفار
وللعيون معان لست أدركها : ... أعين وافية ، أم عين غدار ؟

° ° °

ما كان أقساك ، يا بيضاء ، عاطفة ! ... تجزين أهلك ، إذ غابوا ، بإنكار
إذا خلا البيت من أفراخه جمدت ... فيه الحياة : فلا غاد ولا سار
إلا بقية أطياف تعاودنا ... كأنهم لم يكونوا غير زوار
بيضاء ! لا تهجري داري كمن هجروا ... فأنت آخر من يختال في الدار
أرى بوجهك من غابوا ومن حضروا ... والدهر يضرب أقداراً بأقدار

° ° °

هي الحياة ، على كره أكابدها ... تمضي الحياة ، ولما أقض أوطاري
لحن الحياة بلحن الموت ممتزج ... .والناس ما بين ايراد واصدار
كف الخريف وما أقسى أظافرها ! ... تغتال ما ابدعته كف نوار

° ° °

تحيا حقيقتنا ، حتى إذا خبيت ... عن العيون ، غدونا شبه آثار
نأتي ونذهب إلا صورة ضحكت ... على الجدار ، تركناها كتذكار

خليل هنداوي – حلب





الهادئة زوارق النقل وأسراب الطيور المائية النادرة .



بعوضة « APANTELS » تهاجم فراشة غجرية من نوع « GYPSY MOTH »
تصوير : « أسوشيتد بريس »